

التفسير الموضوحي للقرآن الكريم

تأليف

الدكتور
محمد أحمد يوسف الفاسم
رئيس قسم النفس بكلية أصول الدين
بجامعة القاهرة

الدكتور
أحمد السيد الكوفي
أستاذ التفسير بكلية أصول الدين
بجامعة القاهرة

الطبعة الأولى

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلفين

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين • الرحمن الرحيم •
مالك يوم الدين • إياك نعبد وإياك
نستعين • اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ • صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ • غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ • آمِينَ •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على كل دين سواه ، فكانت به شته رحمة للعالمين . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد : فإن كتاب الله تعالى أكبر هاد إلى الطريق القويم قال الله فيه : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) .
(يا أيها الناس قد جاءكم من ربكم شفاعة في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) .

قد جمع الله فيه أشد الحكمة ونواميس الحياة الصحيحة ، من استمسك به نجا ومن أعرض عنه فقد هوى ، فهو السعادة الشاملة والنعمة الكاملة ، وليس بين المؤمن وإدراكه سعادة الدنيا والآخرة إلا أن يقرأ كلام الله ويتدبره ويعمل به ، فيحظى بالمنعة الروحية والهناء الدائمة ، وتنظم حياته الصحيحة وتحسن صلته بربه وعلاقته بالعالم .

فالقرآن دستور عادل صالح لتنظيم حياة الأفراد والجماعات والأمم . وهذا هو سر خلوده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولذلك كان هر المعجزة الدائمة لرسول الله ﷺ ، وكل سورة بل كل آياته آيات بينات ، وشواهد ناطقات على أنه أعدل قانون عرفته البشرية ، يسمو بالإنسان

إلى أوج العز والكمال ، كما أنها أدلة واضحة على أنه (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

ولما كان التفسير الموضوعي بحثاً من أنواع التفسير التي هي نهج الدارس للقرآن الكريم ، وذلك النوع من البحث حديث في سلوكه جديد في موضوعه ، وهو من الأهمية بمكان عظيم حيث كان مبرزاً للنواحي القرآنية التي من أجلها نزل القرآن الكريم ليكون هداية للناس في أمور الدنيا والآخرة ، وحيث نريد معالجة ذلك النوع نذكر مقدمة له أولاً . ثم نعرض لما نستهدفه ونوفق إليه من موضوعاته ثانياً . فنقول :

التفسير هو علم من العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم من حيث إنه يبين مراد الله تعالى بذلك القرآن الذي نزل على سيدنا محمد ﷺ ، وذلك الذي يوصل إليه هذا العلم لهذا القرآن إنما هو بقدر ما تصل إليه القوة المدركة للبشر ، وهناك من سبيل للجزم بأن ما يصل إليه إنسان من معنى القرآن أن ذلك هو مراد الله تعالى قطعاً ، ولكن البحث حول ذلك المراد مداه أن يصل إلى ظن قوي وإدراك راجح .

وحيث إن مفهوم التفسير يدور حول بيان المعنى المراد لذلك اللفظ كان لازماً على من يسلك السبيل إلى التفسير أن يكون ما يذكره من المعنى للفظ مستلزماً لذكر اللفظ أولاً وبيان معناه ثانياً ، لأن التفسير بمثابة الترجمة عن ذلك اللفظ الذي جاء به القرآن بلفظ آخر يكون أيسر للفهم وأبين للمعنى من نفس اللغة . أما الترجمة فهي بيان معنى اللفظ بلفظ آخر من لغة أخرى وكما لا بد المترجم من متابعة لفظ الأصل لا بد للمفسر من ذلك اللفظ وبيان بلفظ آخر .

وإذا وصلنا إلى هذه النتيجة كان المفسر للقرآن متابعاً لألفاظه وجمله
بياناتاً لمفرداتها ثم جمعاً لتراكيبها ، ومن هذين المقصدين وذوئك الغرضين
يصل الإنسان إلى المعنى المراد من تراكيب القرآن الكريم .

وإذا كان للقرآن ترتيب من حيث التلاوة ونظم من حيث الـكـتـابـة ، وكان
ذلك الترتيب وهذا النظم له اعتبار من التعبد بتلاوته وحصول الثواب من
قراءته درج المفسرون من قديم الزمان للقرآن على متابعة ألفاظه وجمله متابعة
لا تخرجه عن نظمه في التلاوة ولا عن وضعه في المصحف ، بل إنهم حرصاً
على ذلك النظم وتدعيماً لذلك الترتيب كان من جملة أبحاثهم التي ارتكبوا متنها
ومضوا وراء تحقيق أهدافها التفتيش عن إبراز المناسبات والكشف عما
عساه أن يكون من تلك الارتباطات بين آي القرآن بعضها مع بعض في
سورها ، وعن السور بعضها مع بعض في جملتها ، ومن جهة تعلق سابقها باللاحقها
ومتأخرها بمقدمها ، بل إنهم كثيراً ما يذكرون أن بيان المقصود من اللفظ
لا يكون متجلياً إلا بمعرفة السياق والسباق حتى يشع السابق على اللاحق بوضوء
يكشف عن غامضه ، وحتى يستوجب اللاحق للسابق نظرة يستشف ما حال
دونه وحجب غمضونه .

غير أن المفسر للقرآن الكريم على ذلك النهج تارة يكون متمهلاً بمعناً ،
وتارة يكون مسرعاً هاجلاً بجملاً .

ومن البديهي لدارس القرآن بل والتالي له أن يعلم من الآيات المتفرقة في
سوره والمنشرة في أبحاثه ما يكون متعلقاً بموضوع واحد ، وتكون تلك الآيات
متعددة في أمكنتها من القرآن موزعة في سوره ، وهي مع تعددها وتفرقاتها متحدة

الموضوع مشترك في نزع البحث ، لكن النظم القرآنى على الترتيب الإلهى استوجب توزيعها لذكرها فى مناسباتها ، واستلزم تفريقها حتى يكون الغرض لها عند الحاجة إليها وعند وجود الدافع إلى ذكرها . ومن ذلك مثلاً ، ما يتعلق بالخمر فى القرآن الكريم المبكى من سورة النحل فى قوله تعالى : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا) وفى المدنى فى كل من البقرة والنساء والمائدة فى قوله تعالى : (ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) - (يأيتها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ... الآية) - (يأيتها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه . الآية) وغير ذلك كثير كالجهاد مع الكفار والدعوة إلى الله تعالى ، والنكاح ، والطلاق ، والقصص الفى يتعلق بالأنبياء .

ولعل مما يستوجب ذلك التفرق للآيات ذات الموضوع الواحد ما يكون من أسباب النزول لكل جزء من أجزاء ذلك الموضوع كآيات المتعلقة بمسلك الرسول ﷺ ودعوته كقوله تعالى : (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية) حين قالوا : لا هم له إلا النساء .

وكقوله تعالى : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) حين قالوا : (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ... أو يسكون من التدرج فى التشريع كقوله : (وما آتيتم من ربا يربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) ثم قوله تعالى : (يأيتها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون) ثم

قوله تعالى : (فإن تبتم فلمكم د. وصى أموالكم) .. أو تكرار التنبية حتى ترسخ
الحقيقة أو تكون الخلق كآليات المتعلقة بالالوهية وصفاتها ، والآيات التي
تتعلق بالصبر والحلم والمغفرة . ومن ذلك ما يكون مستوجبا للخوف تارة والرجاء
تارة أخرى كآليات التي تتعلق بالوعد والوعيد ، أو ما يكون تكراره لإيراد
المعنى الواحد بعبارات مختلفة وأساليب متغيرة ، ومن ذلك أسلوب القرآن
في القصة الواحدة ، وهذا كثير في القصص القرآني حيث تتكرر القصة
الواحدة في أماكن كثيرة أو ما يكون من أجل مناسبة لجزء من الموضوع في
مكان وجزءه الآخر في مكان آخر لمناسبة أخرى ، أو لتوارد المعاني المختلفة في
المكان الواحد على قلب التالى للقرآن فيتعظ ويزدجر بما توارد على قلبه معنى
ونطق به لفظاً ، كقوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت
عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين)

وهكذا نجد القرآن الكريم في المكان الواحد يتنوع وهو مخبر ومبشر
وآمر وناه إلى غير ذلك .

فبملاحظة ترتيب التلاوة ورسم المصحف وجد نوعان من التفسير هما :
التفسير التحليلي والإجمالي . وبملاحظة اتحاد الموضوع الواحد لجملة من الآيات
المنفردة التي يتجه الناظر في القرآن إلى جمعها وإمعان النظر فيها حتى يرتب
منها أجزاء ذلك الموضوع وجد نوع ثالث من التفسير وهو : التفسير
الموضوعي . وعلى ذلك فتفسير القرآن ثلاثة أنواع . وهناك نوع آخر وهو :
التفسير المقارن .

النوع الأول : أن يمضى المفسر في مراحه للقرآن مع النظم القرآني على

ما هو موجود في المصحف آية بعد آية وسورة بعد سورة متتابعاً معاني المفردات الألفاظ في شرحها ، ذا كراً ما تضمنته المعاني في جملها وما ترمى إليه في تراكيها عنقياً عن المناسبات بين مفاصلها ، ذا كراً وجه الربط بين مقاصدها مستعيناً على الوصول إلى ما تهدف إليه ، وتدل عليه بذكر أسباب النزول وما نزل عن الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك ، أو عن الصحابة والتابعين ما زجاً ذلك تارة بما تستنبطه قريحته ، وتعليه عليه ثقافته ، وتارة بالأبحاث اللغوية .

وذلك النوع من التفسير يختلف فيه أصحابه بين مطبئين مطيلين ، وموجزين مقصرين ، كما يختلفون في منهجهم وبتنوعون في مشربهم ، فمنهم - وهم الباحثون الأولون - من ألزم في تفسيره ما كان منقولاً عن السلف ما زجاً بين ما نقل عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين ، وقد حرم على نفسه أن يأتي بمعنى من عنده مستحدث ، وأمر في ذلك حتى وضع الحواجز بين النقل والقرآن ومنع غيره من التفكير في القرآن واتجاهاته وحرم القرآن من أن تبرز مكنوناته ، وأن يفيض على العقول بكشف مستوراته ، وقد فاته أن ذلك القرآن نزل ليكون مورد كل عصر ومعين كل عصر ومهيأ واسعاً للتفكير وبحالاً فسيحاً للنظر .

ومن المفسرين المتقدمين من أفسح لنفسه المجال في أن يكون مؤرخاً قصصياً يجمع نهمة من البحث التاريخي ويملاً رغبته من الجاذب القصصى ، غير أن بعض هؤلاء أمر في ذلك وحشاً تفسيره بالقصص الذى لا يسلمه عقل ولايس له مستند صحيح من نقل . هؤلاء كانوا شراً ممن سبقوهم وجروا إلى عقائد المسلمين وقرآنهم شراً كثيراً ، وذلك بما ذكروه في التفسير من

قصص إسرائيل نسب إلى الأنبياء ما لا يتفق مع مذهبهم ولا يتواءم مع عقيدتهم .

ومنهم من يكون باحثاً كونياً أو فيلسوفاً عقلياً يتلبس من النصوص القرآنية ما يكون له ظل من نظرياته ، أو ما يكون له نوع اتصال عن قرب أو بعد بما يتمشى مع أفكاره ، مرتكباً في ذلك الصعب والذلول حتى يكون لرايه شاهد من القرآن ، وحتى يكون لما طار به تفكيره وسرح به نظره مستند من وحى السماء ، وذلك كتأويل القاتلين بأن النعيم والعذاب روحاني وكالتأويل بالتناسخ .

ولا شك أن القصد بذلك المسلك في التفسير هو الخداع أمام الجماهير بأن صاحب ذلك التفكير قد وصل إلى عالم يصل إليه الأوائل ، وفي ذلك كثير من كتب التفسير بما ذكره الرازي ، والشيخ طنطاوى جوهرى .

وعلى هذا السنن كان منهم من كتب في الفروع مستطرداً لمسائل الفقه كالقرطبي ، ومن كتب متأثراً بالنحو كأبي حيان ، وقواعد البلاغة كالنحشى ، أو كان متأثراً بالتصوف كابن عربى ، والمذاهب الكلامية كالغنى الرازي .

ومن المتأخرين من جمع في التفسير الواحد ألواناً من تلك الثقافات وإن تولدت مشاربها واختلفت مآربها كالألويسى .

ولا شك أن تلك التفاسير ، وإن كانت موسوعات علمية تجمع فوئاً متنوعة ، ومراجع ثقافية ، فالوزن الفلح لها كتفسير لكتاب الله تعالى ،

وتوضيح معناه يحملها بضاعة مزاجاة قد بعدت عن الهدف المقصود ، ونات عن الغرض المنشود .

وهذا النوع من التفسير على اختلاف ألوانه ، وتنوع مشاهدته وغايته يسمى التفسير التحليلي .

النوع الثاني : أن يعتمد الباحث إلى الآيات القرآنية على ترتيب التلاوة أو نظام المصحف فيقصد إلى معاني جملها متتبعاً ما ترمى إليه من مقاصد ، وما تهدف إليه الجمل من معان يكون في عرضه لهذه المعاني قد وضعها في إطار من العبارات التي يصوغها من ألفاظه ووضعها في قوالب تستسيغها الجماهير ويدركها من له من العلم زاد قليل ، وهو إذ يسير في ذلك التفسير على نهج القرآن في ترتيبه يجعل المعاني بعضها متصلاً ببعض ، وهو إذ ينطلق بعبارة التي صاغها من ألفاظه يأتي بين الفينة والفينة بلفظ من ألفاظ القرآن حتى يشعر السامع أنه لم يكن بعيداً في تعبيره عن سياق القرآن ، ولا مجانباً لمجموع ألفاظه ، وحتى يحقق للتفسير من جانب ويكون رابطاً نفسه بنظام القرآن من جانب آخر ويكون : ونوع الذي يجانب فيه لفظ القرآن آتياً بلفظ يكون أوضح عند السامع ، وأيسر في الفهم عند المخاطبين .

وفي الموضع الذي يجبر فيه بلفظ القرآن يكون ذلك اللفظ القرآني الذي نطق به في جملة ألفاظه واضح المعنى جلي المقصود . وبذلك يكون فيما جاء به من لفظ موضعاً المقصود . ومثل ذلك النوع من التفسير يكون مماثلاً للترجمة المعنوية التي لا يتقيد فيها المترجم لفظاً باللفظ ، ولا حرفاً بحرف ، وإنما يقصد بها إلى توضيح المعاني وتجليتها في بيان المقصود من جملها وتراكيها ، وتكمل له الفائدة المرجوة في ذلك بأن يلجأ إلى ما يحتاج إليه

الموضوع في إيجاز من حادثة تاريخية ، أو سبب نزول أو حديث نبوي ، أو أثر عن السلف .

وهذا النوع من التفسير قد سلكه المحدثون في مقدمة التلاوة بالإذاعة . والمقصود منه إعطاء فكرة إجمالية عما يتلوه القارىء من القرآن الكريم حتى يكون السامع للقرآن الذى يتلى عليه كاشفاً لمراميه وأعياناً لمقاصده ملماً بأطرانه مدركاً لمغزاه ، وبذلك لا يكون سماع القرآن مقصوراً على جمال المقاطع ، وتوقيع النغم ، وإنما يكون له مع ذلك وعى بالمقروء ، وإن كان إجمالاً وإدراك المتلو وإن كان عاماً . ويعرف بالتفسير الإجمالى .

النوع الثالث : أن يعتمد الباحث والناظر فى القرآن إلى الآيات التى تتصل بموضوع واحد فيجمعها ويحللها نصيب عينيه وموجودة بين يديه ، ثم يقاب الطرف فى أبحاثها ويحيل الفكر فى جوانبها ، ويكون منها الموضوع الذى تتصل به ثم يعود إلى جوانب ذلك الموضوع ويجمعه فى إطار متناسب وهيكل متناسق ، ملوياً لنواحيه مبرزاً لمراميه ، حتى يكون هيكلًا تاماً متكامل الأجزاء تام البنيان قائم الأركان ، فإن أعوزه كل ذلك الموضوع إلى حديث جاءت به السنة حتى يكسب هيكله ويتم له صرحه جاء به ، وعلى ذلك ينجلي للقارىء بوضع الآية الهدى الذى يقصد القرآن إليه ، والمعنى الذى يعول عليه وهذا يستكشف القارىء للقرآن هدايته ، ويبرز للناس من مواضع القرآن ما جاء به لأداء مهمته ورسالته .

نقول : ذلك النوع من التفسير وإن نما نحوه علماء العلوم المختلفة غير علم التفسير كعلم الكلام عند الاستدلال على صفات الله تعالى بالدليل النقلى من قبل قوله تعالى : (عالم الغيب والشهادة - فعال لما يريد - الله خالق كل شيء) وكذلك فى علم الأخلاق والتصوف والفقه ، فإن تلك العلوم بوبت فيما

أبوابها واستشهد بها ودعمت بما يلائم تلك الأبواب من أدلة قرآنية وآيات
تنبؤية . نقول : ذلك النوع من التفسير وجد ما يدانيه في علوم أخرى ، إلا
أنه على النحو التفسيري لم يتم بنيانه ، ولم تقم أركانه ولم ينبغ نحوه أحد من
السابقين بل لم يتعرض له من اللاحقين إلا القليل .

وهذا المنهج من التفسير يستلزم - كما ذكرنا - جمع الآيات المنحلة
الموضوعة وتحريك النظر في اتجاهاتها حتى يتأني تحريك النظر نحوها
لاستكشاف ما يكون فيها من اتجاهات شتى ، وبذلك نفتطف من كل غصن
من أغصان ذلك البحث ما يناسبه حتى تكون فروع ذلك الموضوع مستوفاة
مستكملة ، ويكون لكل فرع من الآيات ما يناسبه ، ثم ينتقل إلى موضوع
آخر وهكذا حتى يأتي على الأهداف التي يرعاها القرآن الكريم ويجمع
الموضوعات التي يهتم بالدعوة إلى فعلها أو يهتم بالنهي عن مقارفتها ، وذلك
كموضوعات الألوهية والرسالة والبعث ، وموضوعات الربا والخمر والزنا
والجهاد ، وما يجب على المجتمع من مراعاة حقوق الأفراد ومراعاة الأفراد
لحقوق الجماعات . وهذا النوع من التفسير يقال له : التفسير الموضوعي .

النوع الرابع من التفسير : أن يعتمد الباحث إلى جملة من الآيات القرآنية
في مكان واحد ويستطلع آراء المفسرين متتبعا من كتب في تفسير تلك الجملة
من الآيات . سواء كانوا من السلف أم كانوا من الخلف ، وسواء أكان
تفسيرهم من التفسير المنقول أم كان معتمدا على الرأي ويوازي بين الاتجاهات
المتنوعة والمشارب المتنوعة فيها سلك كل منهم في تفسيره وما انتهى به في
مسلكه فيرى من كان منهم متأثرا بالخلاف المذهبي ومن كان منهم قاصدا
تأييد فرقة من الفرق أو مذهباً من المذاهب

وبوضح أن منهم من تأثر بفقه الذي غلب عليه وثقافته التي برع فيها

ليبرز نواحي كل مفسر في تفسيره وكيف غلب على هذا نحوه فأكثر من وجوه الإعراب ، وعلى ذاك بلاغته فذكر من نواحي الفصل والوصل والإيجاز والإطناب وعلى آخر قصصه فذكر من الحوادث والقصص ما لا يتفق مع المعقول ولا يؤيده المنقول ، وكيف غلب على غير أولئك تشيعه أو تصوفه أو ما تذهب به من معتزلة وأشاعرة ، وما ملأت به طائفة أفكارها من علوم كونية ونظريات علمية وإنجازات فلسفية . كل ذلك يكون فيه معرجاً على ما يستسيغه بنقله ، ونافداً ما لا يقبله بذوقه .

وقد يكون ذلك النوع من التفسير المقارن ذا بجان أوسع وجر أفسح فينتجه في ذلك التفسير إلى مقارنة النصوص القرآنية المشتركة في موضوع واحد ، وما جاء في السنة كذلك من الأحاديث ، ثم يقارن بين تلك النصوص القرآنية بعضها مع بعض كما يقارن بين ما جاء في القرآن الكريم وبين ما جاءت به السنة وذلك مما يكون ظاهره الاختلاف من مثل قوله تعالى : (وقفوهم إنهم مسئولون) وقوله : (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) ، ومن مثل قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون . . الآية) . وقوله : (وتلك الجنة التي أوردتهم بما كنتم تعملون) . وقوله عليه السلام في الصحيح : « إن يدخل أحدكم الجنة بعمله » وذلك ما عنيت به العلماء تحت عنوان آخر ، وهو موم الاختلاف والتناقض في علوم القرآن ومختلف الحديث في علوم الحديث وقد يدمج النظر فيما بين القرآن والكتب السماوية الأخرى إظهاراً لى الاتفاق والإتقان بين ما جاء في تلك الكتب وما جاء في القرآن الكريم .

وقد تكون المقارنة بين النصوص القرآنية ذات القصة الواحدة أو الموضوع الواحد لتظهر المفارقات بين مختلف التفسيرات عن المعنى الواحد

بعبارات تختلف إيجازاً وإطناباً وتأكيذاً وعدم تأكيد ، وأكثر ما يكون ذلك في قصص القرآن فتكون مهمة المفسر في ذلك البحث عن الأسباب والكشف عن الأسرار والحكم التي من أجلها كانت المخالفة بين التعبيرين والمغايرة بين الأسلوبين إيجازاً تارة وإطناباً تارة أخرى ، وتعبيراً بالفظ مرة ووضع لفظ آخر بدله مرة أخرى وذلك وإن بحث في مشتبه القرآن إلا أنه نوع آخر من المقارنة والموازنة .

وتلك الأنواع جميعها - وإن كان أبرزها الأول - تسمى بالتفسير المقارن . وعلى ذلك يكون التفسير أنواعاً متعددة نجملها فيما يأتي :

١ - التفسير التحليلي : وهو بيان الآيات القرآنية بالتعرض لجميع نواحيها والكشف عن كل مرادفها حتى يكون المفسر مستوعباً لجميع الأهداف التي تتطلبها من بحث عن ألفاظها ومعانيها وأسباب نزولها وعمارتها إليه من أحكام وعقائد وعن السر في تعبيرها وما ترمى إليه بالآفاظها وتستهدفه بأسلوبها . ومن أمثاله تفسير الفخر الرازي وتفسير الألوسي .

٢ - التفسير الإجمالي : وهو بيان الآيات القرآنية بالتعرض لمعانيها إجمالاً مع بيان غريب الالفاظ والربط بين المعاني وما يستلزم ذلك من سبب نزول أو ذكر قصة ، وذلك بسرعة خاطفة وتعبير سهل يعطى صورة مجملة عن الطائفة الكبيرة من الآيات في زمن قليل وتعبير وجيز ، ومن أمثاله : تفسير الجلالين وتفسير محمد فريد وجدى .

٣ - التفسير الموضوعي : وهو بيان الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد وإن اختلفت عباراتها وتعددت أماكنها مع الكشف عن أطراف ذلك الموضوع حتى يستوعب المفسر جميع نواحيه ويلم بكل أطرافه وإن

أعوزه ذلك لجأ إلى التعرض لبعض الأحاديث المناسبة للمقام لتزيدها
إيضاحاً وبياناً .

٤ - التفسير المقارن : وهو بيان الآيات القرآنية على ما كتبه جمع من
المفسرين بموازنة آرائهم والمقارنة بين مختلف اتجاهاتهم والبحث هما عما
يكون من الترفيق بين ما ظاهره مختلف من آيات القرآن والأحاديث وما يكون
من ذلك مؤلفاً أو مختلفاً من الكتب السماوية الأخرى .

وإذا نبجلى لنا الفرق بين تلك الأنواع من التفسير فلتعرض لما عزمنا
عليه من الكتابة عن التفسير الموضوعي ولنبدأ بوجه الحاجة إليه .

الحاجة إلى التفسير الموضوعي

والحاجة إلى التفسير الموضوعي ظاهرة من بيان أنه عبارة عن شرح
الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد ، لأنه إذا كانت المباحث القرآنية
متجلية للمباحث بجميع نواحيها ، متجهة به إلى غايتها ، مبرزة لنواحي الحكمة
في دعوة القرآن إليها ، كان ذلك الاتجاه باعنا للمطلع عليه إلى أن يسلك
الطريق الذي رسمه القرآن ، حيث كان واضح الغاية يحدد النهاية بارزاً في
تصوره جامعاً لكل الأهداف في تحقيقه ، فإذا ما أشبع الإنسان رغبته من
موضوع وانتقل إلى موضوع آخر منتهجاً ذلك المنهج كان القرآن بيننا للناس
في جميع نواحيه ، متجهاً بهم إلى جميع مراديه ، ولا شك أن ذلك المسلك ،
ولذلك الطريقة تؤدي بالناس إلى أن يفهموا القرآن فيقبنوا اتصاله بواقع
حياتهم حيث يرشدكم إلى الصالح منها ويحذركم ما يكون حذراً لهم وعائقاً عن
طريق إسماعهم . وذلك كما قال الشيخ محمود شلتوت رحمه الله : وهذه الطريقة

في نظرنا هي الطريقة المثلى وخصوصاً في التفسير الذي يراد إذاعته على الناس
بقصد إرشادهم إلى ما تضمنه القرآن من أنواع الهداية ، وإلى أن موضوعات
القرآن ليست نظريات بحثية يشتغل بها الناس من غير أن يكون لها مثل واقعية
فيما يحدث الأفراد والجماعات من أفضية تتصل بحياتهم من شئون^(١) .

فهذه الأبحاث الموضوعية يستشف الإنسان هدى القرآن فيما يصحح
به علاقته بربه حيث تكون معرفته معرفة صحيحة لا يشوبها من غبار
التشبيه ما يحيد به عن الطريق ، ويعرفته انفسه يعلم احتياجه إلى تلك القوة
الفاهرة القادرة .

فإذا وصل إلى هاتين الممرتين ، وقدرهما حتى قدرهما وعلم أن الله خالق
قادر ، وهو مخلوق ضعيف تقلب في أطوار خلقه من حال إلى حال بعد أن
لم يكن شيئاً مذكوراً ، انجبه في السلوك إلى تلك الذات الخاتمة سلوكاً يرضيها
وساد إليها سبراً يقربه منها ، وبدنيه إليها ، فيرتسم ما شرعته من أعمال
ويتحلى بما رسمته من كريم الخلال وجميل الأفعال حتى تقوى صلته بها ثم
ينظر بعد ذلك إلى ما أرشد إليه هدى القرآن وإلى ما يصاح به الفرد وتصالح
به الجماعة من معاشرين وجيران وأهل وأوطان وذهاباً في ذلك ما يكون من
الوسائل الصحيحة في البيع والشراء وال أخذ والعطاء .

وهكذا حتى يكون منهجه في حياته منهجاً قرآنياً وسلوكه إليها سلوكاً
شرعياً ، وهو بذلك يقدر نهايته إذا ما حاد عن طريق القرآن ، بأن يشقى
في حياته الدنيا ويشقى في حياته الآخرة .

وإذا كان ذلك كذلك في دراسته لموضوعات القرآن كان له من القرآن كامل الانتفاع ، متزوداً منه خير زاد إلى فسيح البفاح ، وأدرك بذلك النوع من البحث هداية الله في القرآن إحراكاً سامياً ، وعرف تشريعات القرآن معرفة صحيحة ، وليس ذلك إلا بواسطة هذه الدراسة الموضوعية التي تعدد الأهداف وتشق الطريق إلى المقصود ، وتفتح القلوب إلى الغاية ، وتمكن النفوس من الغرض والعيون من الهدف .

والعصر الذي نعيش فيه يحتاج إلى ذلك النوع من التفسير حيث كان في سلوكه إدراك المقصود من أقرب الطرق والوصول إلى الحقيقة بأسهل الوسائل ، خصوصاً أنه في عصرنا يثار كثير من الغبار في جر الأديان فتفتشر المبادئ الشيوعية ، وتخلق في سماء الإنسانية سحب الضلال والشبه ، وليس يقوى على ذلك إلا سلاح قوى واضح سهل يمكن رجس العين من الذود عن حياضه ، والدفاع عن دعائه ، وليس هذا إلا بذلك النوع من التفسير حيث كان جامداً لاشتات الموضوعات محيطاً بأطرافها .

ولا ريب أن هذه الطريقة في الأبحاث القرآنية ، فيها الدواء من الأسقام النفسية والجسمية ، وفيها العلاج لكل مشاكل حياتنا السياسية والاجتماعية . قال تعالى : (إن هذا القرآن يهدي للذي هدى لقوم) وجاء عنه عليه السلام فيما رواه الترمذي عن الحارث الأعور عن علي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قيل : فما الخرج منها يا رسول الله ؟ قال كتاب الله تعالى ، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بينكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم والهراط المستقيم ، هو الذي لا يزغ به الأهواء ولا تشعب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يله الأتقياء من علم علمه سبق .

ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ، ومن اعتهم به فقد هدى إلى صراط مستقيم .

متى نشأ التفسير الموضوعي ؟

نزل القرآن على رسول الله ﷺ وأقرأه أصحابه رضى الله عنهم وكانوا يعرفون من أسرار ما لا يعرفه أحد ، ولكنهم لم يدونوها ، لأن القرآن قد ملأ عليهم حياتهم . فكانوا دائبين على دراسته وفقهه ونشره بين المسلمين ، وكانوا عرباً خالصاً يتمتعون بصفاء الذهن وقوة العارضة ، ثم إن معالجة الكتابة ليست بالشىء السهل بحيث تشجعهم على كتابة كل شىء .

وكان رسول الله ﷺ بين أظهرهم يستفتونه فى كل شىء عن لهم أو اختلفوا فيه ، وحتى بعد انتقاله عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى كانوا يعرضون آراءهم على القرآن وعلى السنة وعلى ما تذوقوه من نور الشريعة السمحة ونور صاحبها ، وهناك مثالا يتضح منه أن التفسير الموضوعي وجد في العصر الأول ، وإن كان بصورة غنية عن الشرح والتفصيل :

قول الله تعالى : (واللاتى يؤمن من الخيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاتى لم يحضن) فقد أشكل على بعض الأئمة هذا الشرط - وجاء سبب النزول يعيننا على فهم المراد منه : فقد أخرج الحاكم عن ابن بن كعب أنه لما نزلت الآية التى فى سورة البقرة فى عدد النساء (٢٢٨ ، ٢٢٩) قالوا : قد بقيت عدد لم تذكر وهى : عدد الصغار والكبار فنزلت .

ثم لما تطورت الحياة وجاء وقت تدوين الكتب وتأليفها ، شملت فيما شملت تفسير القرآن الكريم : فترى عن ألف فى التفسير الموضوعي : قتادة بن دعابة السدوسي المتوفى (سنة ١١٨ هـ) فقد ألف فى الناسخ والمنسوخ

هو أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى (سنة ٢٠٩ هـ) ، و كتابه (مجاز القرآن) مطبوع — وألف أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى (سنة ٢٢٤ هـ) في الناسخ والمنسوخ و كتابه مطبوع ، وألف في أسباب النزول : علي بن المديني شيخ البخاري المتوفى (سنة ٢٢٤ هـ) ، والواحدى النيسابورى (المتوفى ٤٦٨ هـ) و كتابه مطبوع .

وألف في غريب القرآن : أبو بكر السجستاني المتوفى (سنة ٣٣٠ هـ) ، والراغب الأصفهاني المتوفى (٥٠٢ هـ) ، وألف ابن فهدية المتوفى (٢٧٦ هـ) كتابه : (تأويل مشكل القرآن) .

وألف الشريف الرضى المتوفى (سنة ٤٠٦ هـ) كتابه : (تلخيص البيان في مجازات القرآن) .

ومن ألف في إعجاز القرآن : الباقلاني المتوفى (سنة ٤٠٣ هـ) ، والرماني المتوفى (سنة ٣٨٦ هـ) ، والخطابي المتوفى (سنة ٣٨٨ هـ) والجرجاني المتوفى (سنة ٤٧١ هـ) .

وألف ابن القيم المتوفى (سنة ٧٥١ هـ) في أقسام القرآن ، والبقاعي المتوفى (سنة ٨٨٥ هـ) في تناسب الآيات والسور وهو آية في بابه .

ومن مؤلفي العصر الحديث : محمد صادق الرافعي : و كتابه يسمى (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) — محمد مصطفى المراغي : و كتابه في : (ترجمة القرآن الكريم وأحكامها) — محمد فريد وجري : و كتابه : (الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية) . إلى غير ذلك من الكتب الحديثة التي تتناول التفسير من زاوية الموضوع الواحد في الهدف الواحد .

طريقة البحث في التفسير الموضوعي :

للابحث في هذا النوع من التفسير طريقتان :

(١) أولاها : أن يجعل السورة القرآنية وحدة متكاملة هدفها واحد ، وإن تعددت موضوعاتها ، فهي تدور حول مركزين يسمى بالفرض سواء كان عاماً أو خاصاً .

فتقول مثلاً : سورة البقرة : الهدف منها تحديد الطريق القويم لمن أراد أن يسلك نفسه مسلك المتقين ، ثم تفسر الموضوعات التي وردت في السورة على هذا الهدف .

وتقول مثلاً : سورة آل عمران : هدفها تحديد معالم الألوهية الحقة ، وإثبات أن الله واحد لا شريك له .
وهكذا في كل سور القرآن .

ومما يعيننا على فهم هذا النوع من نوعي التفسير الموضوعي :

١ - كتاب (نظام الدرر في تناسب الآيات والسور) للبقاعي (م سنة ٨٨٥ هـ) ، وهو كتاب فريد ، حيث أدمج كل موضوعات السورة تحت فرض واحد تدور عليه آيات السورة الواحدة .

٢ - كتاب (النبأ العظيم) للدكتور محمد عبد الله دراز ، وهو كتاب لا يستغنى عنه باحث ، وقد تكلم فيه عن سورة البقرة ، ونظمها في عقد فريد يظهر جمال النظام الإلهي ، ذي الترتيب المحدد بمقدار معين .

(ب) ثانيتهما : أن نجمع الآيات القرآنية ذات الهدف المشترك ،

وزرتها على حسب النزول - ما أمكن ذلك - مع الوقوف على أسباب النزول - إن وجد - وتناولها بالشرح والبيان والتعليق والاستنباط ، ونوزنها بميزان العلم الصحيح ، مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم ، بقصد الوصول إلى الغاية المرجوة من وراء هذا البحث القرآني ، وإفادة المجتمع الإسلامي منه .

والطريقة الثانية هي المعمول بها في مجال البحوث العلمية الموضوعية ، وإذا ما أطقت كلمة : « تفسير موضوعي » فلا يفهم منها إلا بحث موضوع من موضوعات القرآن الكريم على مستوى القرآن جميعه .

وأول ما يجب على الباحث :

١ - أن يجمع الآيات القرآنية التي تخدم موضوعه ، مستعيناً على ذلك بحفظه وبالمصحف الشريف ، وبعض الكتب التي عنيت بجمع الآيات تحت عنوان واحد ، أو التي تجمع الآيات المتماثلة في حروف المعجم - مثل كتاب (المفردات) الراغب الأصفهاني (م ١٤٠٢ هـ) وكتاب (إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) للداعقاني (ومعجم ألفاظ القرآن الكريم) لمجمع اللغة العربية . و (تفصيل آيات القرآن الكريم) لجول لا بوم وويليه (المستدرك) لأدوارد مونتغيه : تهريب الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي . و (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي .

٢ - ثم يرتب هذه الآيات حسب النزول - ما أمكن - ما نزل في مكة أولاً ، ثم ما نزل في المدينة ثانياً - وما نزل أول العهدين قبل ما نزل آخرهما .

٣ - إزاحة ما قد يكون بين الآيات من موهم الاختلاف والتناقض ،

موقناً أن القرآن لا يوجد فيه اختلاف تناقض ، وما وراء ذلك يمكن التوفيق بين الآيات بعضها وبعض ، لاختلاف الجهة من الزمان أو المكان أو الحقيقة والمجاز ، أو اختلاف جمى الفعل ، أو وقوع المخبر به على أحوال مختلفة ... ونحو ذلك .

٤ - تفسير الآيات أثناء عرضها تفسيراً يفهم منه الحكمة في إيراد الآيات ، والغرض من هذا التشريع الإلهي ، والغاية من وراء تنفيذ الأمر واجتناب النهي ، مع تدعيم التفسير بالسنة النبوية ، وأقوال السلف الصالح ، وإيراد أسباب النزول إن وجدت ، وشرح قصة من قصص الأنبياء والأمم السالفة إن وردت في الآيات محل الشرح ، مع مراعاة شروط المفسر أثناء عرض الموضوع .

٥ - إخراج الموضوع في صورة متكاملة تامة البناء والإحكام : بمراعاة شروط البحث العلمي ، واضماً نصب عينيه أنه يبرز للناس طريقاً من طرق إرشاد القرآن التي هي أقرم ، طارحاً وراءه عقيدة فاسدة ، أو أية مؤثرات خارجية قد تقاضى على الحقيقة المنشودة من وراء بحثه الآيات القرآنية ، ويكون هدفه الأسمى إبراز محاسن القرآن لخدمة الأفراد والمجتمع ، الإسلامي .

إجمالي لما عرض إليه القرآن من موضوعات

انقرآن الكريم دستور الإنسانية من لدن رسالة سيدنا محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة ، فهو ناسخ لما نزل من الكتب قبل ذلك ، مهيمن على ما جاءت به (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) . وهو بعد ذلك لا يبدله كتاب ولا ينقضه ناموس ، وهو في الوقت نفسه رسالة عامة لجميع الناس قاصيهم ودانيهم ، أبيهم وأسودهم : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) . بل إنه تشريع لكل من الإنس والجن .

وكتاب مهمته تلك ، ورسالته هذه ، منسقة الأطراف ، ممتدة الأزمان لا شك يسكون مع تحديد صفته وحصر جملة متعرضاً لكل موضوع يهم البشر في عقيدتهم ، وبرسم لهم طريق السعادة في سلوكهم سواء في ذلك ما يهدي إلى الخالق وما يوجه إلى البحث عن أسرار الكون ، وما يؤدي إلى تقوية العلاقة بين الخالق والمخلوق ، أو إلى حسن الصلة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، ثم هو كذلك يوضح لهؤلاء الذين أرسل إليهم الحكمة من خلقهم كما يبين لهم ماذا يؤول إليه أمرهم .

وهو إذ يهديهم طريقاً إلى البحث عن أسرار الكون والكشف عن غامض هذا الوجود ، لابد أن يكشف لهم عن توافد ذلك السر حتى يتسرب منها أشعة ضوئها ، تستهدي بها نفوسهم ، وتشرب لها أعناق نفوسهم ، فتسترعي عقولهم إلى السير في تلك الجادة حتى تكشف ما أودع في تلك

الحقائق من قوى تظهر بمرور الأيام ، وينتفون بحلقها وتارها على مدى الأزمان والأعوام .

نقول : كتاب كذلك رسالته ، وعلى هذا المنوال هدايته ، وهذه الذات الإلهية مصدره ومنبعه لا بد أن يكون ملأ بجميع الموضوعات التي بها يؤدي تلك المهمة الكبرى ، وهذه المساواة العظمى مفصلاً لا بعض التفصيل لهذه الموضوعات ، وبجملها كثير منها على حسب ما تقتضيه تلك المهمات إجمالاً وما تستلزمه تلك الحالات تفصيلاً .

ولذلك تراه يعرض لكثير من الموضوعات نذكر على سبيل الإجمال بعضاً منها فنقول : تعرض القرآن الكريم لما يأتي :

أولاً : تعرض للألوهية في وضعها الحقيقي وعلى عنها ما أسدله ثابها الأوهام من أستار ، وحجبت ضوءها عن أن يصل إلى الفطر الإنسانية في دور سذاجتها حتى أبست الحقيقة بالباطل ، وأبرزت الزور في صورة ينخدع بها كثير من الناس . فجاء القرآن مخاطباً العقل في إثبات تلك الألوهية بإرسال الأضواء العقلية على الأهداف المنصوبة أعلاماً للألوهية ، وأزال ما يحبط بهذه الأعلام من ضباب وهو في عرضه لذلك يباين المقصود من طريق مباشر قريب ، ويفتح الباب أمام العقول بواضح البرهان غير مقيم في ذلك الطريق عقبات من اصطلاحات علمية ، ولا يثير في جو تلك الهداية غباراً من أوهام المضللين .

ثانياً : ومن جملة ما تعرض له القرآن تلك الحياة الأخرى وقد صورها بظواهر نصوصه تصويراً يجمعها نتيجة حتمية تستوجبها صفة العدالة لتلك الذات الإلهية صاحبة الهيمنة الكلية على الكون بأمره ، وهي بتلك الهيمنة

تكون بعيدة عن اللهو والبحث مجافية للظالم محقة للعدل ، وحيث تكون كذلك فهي لا تسوى بين محسن ومسيء وصالح وطالح ، ومحق ومبطل ، وضال وممتهى ، لذلك يقول في مخاطبته مصوراً تلك الحياة : (أفنجعل المسلمين كالمجرمين • ما لكم كيف تحكمون • أفنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار • أفسدتم أنا خلائقنا من عبنا وأنكم إلبسنا لا ترجعون • فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) .

ثالثاً : ومن ذلك ما تعرض له القرآن في شأن هؤلاء الرسل الذين اصطفاهم الله تعالى من بين خلقه ، يحملون وحيه ويبشرون رسالانه وهم إذا اصطفاهم الله تعالى ذلك الاصطفاء القدوة الحسنة لحسن معيشتهم وطيب أصولهم ، لأن تحمل الأعباء لمثل تلك المهمة إنما يكون لمن بلغ من المسكنة شأواً واسعاً ، ومن بلغ في الذروة أكمالها ، وحيث كانوا مبغين عن الله تعالى داعين إلى شرائده فقد جعل الله تعالى طاعتهم من طاعته ، وغالفتهم مستوجبة غنمه ومؤذنة بحربه ، وحيث نصبوا أنفسهم للهداية قولا وضربوا المثل العليا عملاً لا يتأتى منهم المعصية ولا تصدر منهم حوبة ، ولا يثار في جو سمائمهم غبار من إثم ، ولذلك تحسن بهم القدوة ، وتكمل بتبعيتهم أفراد البشرية ، وهم وإن جاءوا متفرقين في العصور فهم شجرة واحدة ذات أصل واحد ، وإن انتشرت فروعها وتفرقت أغصانها ، ولذلك وجب الإيمان بجميعهم دون تفرقة بينهم (لا نفرق بين أحد من رسله) ومن فرق بينهم كان هو الكافر حقاً .

رابعاً : ومن ذلك ما جاء به ذلك الصنف الذين هم واسطة بين الله والإناس ، قد جعلهم الله تعالى خلقاً آخر ليس من عالم المادة والعناصر ، يقومون بوحى

الله إلى الرسل ، كما يرعون البشر في أمور معاشهم يحفظونهم في تصرفاتهم ،
ويسطرون لهم أعمالهم ، ويسجلون عليهم أفعالهم يتعاقبون فيهم ليلاً ونهاراً
عن اليمن والشمال يختلفون في منازلهم ، يتميزون في مكانتهم ، فهم علويون
وسفليون ، وأرضيون وسماويون ، وكروبيون . منهم الرؤساء ومنهم المرؤسون ،
وهم لا يدعون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

خامساً : ما جاء به القرآن من تشريعات للفرد والمجتمع ، فقد حرم على
الناس دماءهم فيما بينهم ، وصان عليهم عقولهم وأطرافهم ، ووضع لما الديات
جزاء لهم ، وشرع لذلك القصاص حياة لهم ، فقال : (يا أيها الذين آمنوا
كتب عليكم القصاص في القتل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) ،
(ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون) ، (وكتبنا عليهم
فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن
بالسن والجروح قصاص) .

وحرم على الناس أعراضهم وحذرهم أن تنتهك فيما بينهم ، ولم يبيحها إلا
لأزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، صيانة لها عن الاختلاط ، وحفظاً لأنسابهم
عن الضياع ، ووضع لذلك الحدود الزاجرة ، والعقوبات الرادعة ، فقال :
(الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في
دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من
المؤمنين . الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان
أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين) .

ونهاها عن أكل أموال الناس بيننا بالباطل عن طريق الغش والحداد
والفصب والإكراه ، وحيل الربا وأنواع الاستغلال الحرام فقال :

(ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) .

وقد أبدلنا الله تعالى عن ذلك البيع والشراء وجعل ذلك عن تراءى فقال : (وأحل الله البيع وحرم الربا) وأمر بإخراج الزكاة وتوزيعها على أصحاب الحاجات ، وأرباب الفاقات فقال : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله والله عليم حكيم) ، لينزع الحقد والغل والحسد من نفوس الفقراء على الأغنياء ، ويسود الأمن والطمأنينة والاستقرار والرخاء في المجتمعات ، وحتى لا تجمع الثروة في يد بعض الأفراد ، وحتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء فقال : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيدبرهم بهذاب أليم * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) وقال : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها) .

وحثنا على القرض والصدقات وإففاق المال في وجوه البر والخيرات (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) ، (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم) .

سادساً : كذلك جاء القرآن في المعاملات الاجتماعية بما يتفق مع شئوننا الخاصة ومصالحنا العامة ، ويحفظ على الأمة كيانها ، ويقوى بنيانها ، ويدعيم عليها قوتها ويحفظ اقتصادها ويحقق لها رفاهيتها ونظامها ، ويسمدها بوحدها وتماسكها ، ويجعلها خير أمة قوة ومنعة وأمناً وعدلاً . قال تعالى : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) ، (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في

الأرض وابتغوا من فضل الله) ، (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين) ،
(يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً) ، (وأنزّلنا الحديد فيه بأس
شديد ومنافع للناس) . إلى غير ذلك من الآيات .

سابعاً : ومن ذلك ما جاء به القرآن من أكرم الخلال ، وأكمل الخصال ،
وأسمى السجايا وأحسن الأفعال .

جاء يأمرنا بالعفو والصفح وكظم الغيظ وأداء الأمانة وإقامة العدل ،
وتنفيذ العهد ، والوفاء بالعقد ، والإصلاح بين الخلق ، والصبر وحب الخير ،
ومحبة الأرحام ، وبر الوالدين وحسن الجوار والاستئذان ، وإفشاء السلام ،
وغض الأبصار عن الحرام ، والعطف والإحسان ، والتعاون والتناصر ،
والصدق في القول والإخلاص في الدين والعمل .

ونهاى عن الإيذاء والظلم والغيبة والنميمة والتجسس على العورات ، وظن
السوء بالمؤمنين والمؤمنات ، ورمى المحصنات الزنا ، والبغى والنفاق
والغش والكذب والكبر والمنكر والعدوان والحسد والحقد والقتل والربا
والزنا وشهادة الزور ولعب الميسر واللغو الحرام ، والإسراف والتقصير
ومسرب الخمر . وغير ذلك مما لا يحفى على قارئ القرآن الكريم ، قال الله
تعالى : (والكافرين الغيظ والعاقين عن الناس ، والله يحب المحسنين) ،
(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن
تحكموا بالعدل) ، (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان
بعد توكيدها) ، (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) ، (وأصلحوا ذات
بينكم) ، (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح
بين الناس) ، (أولئك يسارعون في الخيرات) ، (واتقوا الله الذي
تسألون به والأرحام) ، (وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين

والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم) ، (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلطوا على أهلها) ، (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) ، (وتعارفوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) ، (وأخافوا دينهم لله) ... إلى غير ذلك من الآيات .

ثامناً : ما جاء في القرآن الكريم خاصاً بالعبادات من صلاة ، وصيام ووجع وزكاة .

فقد شرع القرآن منها للناس ما كان في الغالب الكثير معقول المعنى ، بين الحكمة ، مفهوم النافعة ، جلي المرئى ، يتفق مع نشأتهم وخلقهم ، ويتناسب مع استعدادهم وفطرتهم ، ويليق بدينتهم وأحوالهم ، ويدخل تحت قدرهم واستطاعتهم فلا مشقة ولا إرهاق ، ولا تعجز ولا إعنات ، ولكن سهولة ويسر وسماحة ورفق (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) ، (والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) ، (وما آتيتكم من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما آتيتكم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المصدقون) ، (فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر) .

تاسعاً : موقف القرآن من أهل الكتاب :

فقد نظر القرآن علماء الدين من أهل الكتاب الماضين فعاب عليهم تحريفهم لكتبهم وتبديلهم لها بما عندهم ، وتأويلهم إياها بما لا يعتقدون أنه الحق في دينهم ، وتغييرهم ما جاء فيها بما يتفق مع رغباتهم وشهواتهم ،

فباعوا آخرتهم بدينها غيرهم في عرض قليل ، وثمن زهيد ، فخلطوا بين حقها وأباطيلهم ونبدوها وراء ظهورهم ، وضيعوا ما استحفظوا عليه من كتاب ربهم وكانوا عليه شهداء ، وأفسدوا عقائدكم فجعلوا لله أنداداً ، واتخذوا من دونه أرباباً ، (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) ، (قل يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) ، (وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلمهم السمعت لبئس ما كانوا يعملون) ، (أنأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) .. إلى غير ذلك من الآيات التي يعلمها من تلى القرآن حق تلاوته .

عاشراً : وبالمجمل قد أباح القرآن التأييدات من الرزق وحرم الخبائث ، وأباح زينة الحياة الدنيا ، وحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وهذب الطباع ، وزكى الأرواح ، ومن الأحكام ، وبين الحلال والحرام ، وفصل آية الحق ، وأبان معالم الصدق ، وخط للسعادة طريقاً وهيأ لها سبلاً ، لا يضل من سلكها ، ولا يشقى من ارتادها ، أقام الدليل والبرهان المفهم ، وفك رقاب البشر من قيود الشهوات وأنزلها منازل السادات ، وكرمها على سائر المخلوقات ، وكشف عن العظائم البالغة ، والحكم النافعة ، ترى فيه الأمثال التي تقرب المعقول من المحسوس ، تخضع لسلطانها وبيانها العقول وأن لها من صحة المعنى وصدق التعبير ، وتنوع الأسلوب ، وحسن البيان ، ولطيف الإشارة وإصابة الغرض ، والوصول إلى الهدف ، ما لا يقدر عليه إلا الحكيم الخبير .

وما أعظم وصف رسول الله ﷺ للقرآن الكريم فيما أخرجه الترمذي عن علي - رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ستكون

فإن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله
تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل
أيسر الهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله
الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط
المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب
معه الأدواء ، ولا يشعب منه العلماء ، ولا يملأه الاتقياء ولا يخلق على كثرة الرد ،
ولا تنقض عجايبه . . . الحديث : (يأيتها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم
وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك
فليفرحوا هو خير مما يجمعون) .

هذا بعض ما عني به القرآن من موضوعات تتغلغل في صميم الحياة وتصلح
دستوراً عاماً في كل زمان ومكان ، وتبرز للناس سر خلود القرآن وإعجازه وأنه
(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)^(١) .

(١) مقدمة تفسير القرطبي ٤/١ ط دار الكتب والأولى . .

(٣ م - التفسير الموضوعي)

منهج القرآن الكريم في عرض موضوعاته

إمتاز القرآن الكريم في عرضه لموضوعاته بطريقة لم يسبق إليها فلا يستطيع أن يسلكها سالك أو ينتهجها ناهج ، فهو في عرضه يتخذ له أسلوباً يختص به ، أعجز الإنس والجن عن معارضته . فتراه حين يعرضها يأتي بوجوه متعددة وأساليب متنوعة وأفانين متعددة ، يراعى المقام في كل موقف من مواقفه ، ويطابق جميع مقتضيات الحال في كل عبارة من عباراته ، فله في كل مقام مقال وفي كل موضوع مجال ، فرة يكون خبراً ومرة إنشاء وتارة إظهاراً وأخرى إضماراً . يأتي بجملة إسمية كما يأتي بها فعلية ، يتلون بين التثنية والتثنية والخطاب كما يتلون بين الماضي والحاضر والمستقبل .

تصور بصورة الإنكار كما تصور بصورة التثنية والإستفهام وتكون على وجه الجزم كما تكون على وجه الرجاء .

طرق في الأداء لا عهد للبشر بها في أبلغ كلام ولا مثيل لها في أفصح بيان ، غاية في البلاغة ليس لها نهاية ، ونهاية في الفصاحة لا يجاوز انفصحاء مبتدأها .

ثم هو فيما عرضه من موضوعات شتى لا يهمل جانب النظر ولا يغض عن شأنه بل يبحث عليه ويدعو إليه ويتحاكم إلى العقول في كشف الحق وبيان الصدق . يشفع حكمه ببيان حكمته وتوجيه شرعته ثم يدع للسامع الحرية وحسن الاختيار فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

وإن تعجب فعجب عرضه للموضوع الواحد ذي المعنى المتعدد والهدف المشترك فإك تجده مع تفرقه في القرآن الكريم في أماكن عدة ومع تباعد أوقات نزوله وتباين أزمان وصوله ، ليس بين آياته مفارقة ولا تلفيق ولا تشويه ولا تناقض ، بل هي وحدة واحدة مترابطة متناسقة تكون لك

صورة واحدة في أحسن تقويم ، وتعطيك منظراً متألّفاً في أبدع تنظيم
وتصور لك دمية متناسقة الأعضاء ، مترابطة الأجزاء ، متكاملة البناء ، جيدة
السبك ، قوية المعنى ، متينة النظم ، لا تناكر بين معانيها في العقول والأفهام
ولا تباين بين مبانيها في الأصماغ والأذان ، بل يكمل بعضها بعضاً ويأخذ بعضها
بعض .

كل جزء يستدعى الآخر معه ، وكل لفظ يقع من الثاني موقعه .

وبالجملة : فالقرآن الكريم في عرضه لموضوعاته فريد في بابه .

وليك بعض الأمثلة في طريقة العرض لتكون نبراساً يستضاء به في
منهج القرآن لعرضه لباقي موضوعاته :

عرضه لتشريع الأحكام وبيان الحلال والحرام

أولاً : لما كان ذلك يحتاج إلى مزيد من الإيضاح والبيان كي يتضح أمره ويفهم نهيهِ ليكون المرء على بينة منه .

نرى القرآن الكريم في عرضه لهذا التشريع يأتي بالأسلوب المهل والتعبير البين الذي يدرك أمراره الخاصة ، ولا يعلو مقصوده على أفهام العامة ، حاوياً لوجوه المصالح والحكم ، حتى يدفع العقلاء المنصفين إلى إمتثاله وتقبل أحكامه . مشفوعاً ببيان ما المطيعين من ثواب وما للافين من عقاب ، ترغيباً للأولين وتحذيراً للآخرين .

ويتجلى ذلك في مثل قوله تعالى : (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) . وفي مثل قوله تعالى : (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً) وفي مثل قوله تعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أركى لهم إن الله خير بما يصنعون) وفي مثل قوله تعالى : (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات) .

فإننا نرى الحكمة المنشودة من التشريع واضحة جليلة تدرجها العقول وتمثل مغزاها الجلي بما أرشدهت إليه من المصالح العام ونبل الغاية وعظيم المنفعة .

ثانياً : نرى القرآن الكريم في العصر المبكى يعنى بالعقيدة والمبادئ العامة وأصول الأخلاق الكريمة ، فهو يدعو إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأوثان وتخليص النفوس مما علق بها من العادات القبيحة والتقاليد المردولة ويوجهها إلى الانحلي بالأخلاق الكريمة والصفات الحميدة .

وهو في هذا لا يقصد إلى تشريع تفصيلي أو قانون شامل لجميع النواحي الاجتماعية والدينية . فاذاك إلا لأنه يحارب المبادئ الهدامة فيجتها من أساسها ويقاوم العادات السيئة فيقتلعها من جذورها ويضع مكانها المثل العليا والأخلاق الفاضلة وهي خير محض لا يتجزأ ولا تنقسم عراه ولو شاء لجأهم بالتشريع الكامل دفعة واحدة وبالدستور الشامل جملة متألقة . ولكنه راعى في هذا طبيعة النفوس وتمكن العادات منها فأخذ يبدع إلى بر الأمان وقادهم إلى ساحل النجاة ، سالكهم طريق الرقي في السكالات درجة بعد درجة حتى يسهل عليهم عروج هذه المرقاة فيصحبوا أهلاً للحلوله في أوج هذه السكالات .

وإن نظرة واحدة فيما كان يمكن من تشريعات لتعطينا صورة صادقة لهذا السمو الذي ارتفع بنفوس أولئك الذين كانوا يعيشون في جهالة جملاء وضلالة عمياء . وانظر إليه كيف جمع الفضائل العليا والصفات الكاملة في آيات معدودة من سورة المؤمنين : (قد أفلح المؤمنون • الذين هم في صلاتهم خاشعون • والذين هم عن الفحش ممرضون • والذين هم الزكاة فاعلون • والذين هم لفروجهم حافظون • إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . . . الآيات) ومثيلاتها من سورة الإسراء من قوله تعالى :

(وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) إلى قوله تعالى
(ولا تمشي في الأرض مرحاً إنك إن تخرق الأرض وإن تبلغ الجبال طولاً
كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً) .

وهذه الوصايا العالية جاءت بمجموعة في سورتي الأنعام والمعارج المكيّتين .
وذلك شاهد بعناية الكتاب العزيز بالمبادئ العالية وتركيزها في النفوس
قبل الدخول في التفاصيل والفروع .

ثالثاً : هناك من التشريعات العملية ما يحتاج إلى تقرير المبدأ أولاً على سبيل الإجمال ثم يكون في حاجة إلى التأكيد والتفصيل لأنه ليس صميم الحياة ويتصل بظروف المعيشة واتعامل .

نرى القرآن في هذا يعتمد إلى المبدأ فيمسه مسارقيفاً ، ثم يعود فيسلكه بالمبادئ مسلك التدرج والترقي في هذا التشريع حتى يصل بهم إلى غايته . يتجلى ذلك في المثليين الآتين في تحريم الخمر وتحريم الربا ، وقد كانت الخمر عادة متأصلة في النفوس ، وكان الربا من مقومات أوضاعهم الاجتماعية التي بها وجهت المفارقات بين الطبقات المختلفة . فإن القرآن سلك في تحريم هذين المنكرين مسلكاً تربوياً عظيماً . فهو في مكة ينفرهم من اقتراف هذه المنكرات تنفيراً حسيباً على جهة التلييح والتلويح لا على جهة الحزم والتصریح . فيقول في سورة النحل المسكية في معرض الامتنان بالنعمة والآلاء : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً) فيمتن بالثمرة التي خلقتها الله ويلح لهم بأنهم الذين اتخذوا السكر من هذه النعمة العظيمة ويقابل بالرزق الحسن المحمود . ويفعل مثل ذلك في سورة الروم حيث يقارن بين الربا وعاقبته الوخيمة وبين الزكاة التي يراد بها وجه الله تعالى ونتيجتها المحمودة فيقول : وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله . وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) ثم ينتقل في المرحلة الثانية إلى الذم الصريح للخمر والربا وبين سوء مغيبتهما وما فيهما من إثم كبير ومضرة عظيمة فيقول في سورة البقرة المدنية : (ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) وفي سورة النساء المدنية : (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه)

ثم يأتي دور المرحلة الثالثة وفيها يحرم الخمر والربا تحريماً قاطعاً ولكن في صورة جزئية لا تُتناول جميع الأحوال ، فيقول في سورة آل عمران : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون) ويقول في سورة النساء : (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) حتى إذا كانت المرحلة الرابعة وفيها يشرع التشريع الدائم الخالد ويسن القانون الرادع الزاجر الشامل لكل السور والأحوال فيقول : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين) فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فإلصكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) ويقول في سورة المائدة : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجنّبوه لعلكم تفلحون) إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) .

رابعاً : وهناك نوع من التشريعات عني القرآن بتقرير مبادئه كأملة من أول عهد الدعوة وإن اجتاز في تشريعه بعض المراحل التي اقتضتها الأوضاع القائمة إذ ذاك وهو يشبه أن يكون تدرجاً متدرجاً ، ولكنه في الحقيقة ليس فيه تدرج في ذاته إنما التدرج في تطبيقه على الأوضاع القائمة حسب مقتضياتها .

مثال ذلك : حق الدفاع عن النفس (الجهاد) فلقد قرر الله في كتابه من أول يوم أن سبيل الدعوة إلى الله عز وجل سبيل آمن يسلكه الداعي - وهو رسول الله ﷺ والأئمة من بعده - ملتوماً طريق الحكمة والموعظة الحسنة دون أن يحمل أحداً على اعتناق هذا الدين إلا من طريق الإقناع بالحجة (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) ، (فذكر إنما أنت مذكر) لست عليهم بمسيطر) ، (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) ، (ما على الرسول إلا البلاغ) . هذا هو المبدأ الأول .

أما المبدأ الثاني : فهو رد العدوان بمثله ، وهو حق فطري اعترفت به جميع الشرائع والقوانين الوضعية ، وهو حق مقرر من أول يوم في الدعوة الإسلامية على أنه حق للفرد والجماعة وهو لا يتنافى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة كما لا يتنافى العفو عن المسيء إذا كان العفو يثمر فيه ، بل إنه رغب في العفو مع الاحتفاظ بحق الدفاع عن النفس : (فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) ، (وجزاء سيئة سيئة مثاها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ، (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به وإن صبرتم فهو خير للصابرين) .

في ضوء هذين المبدأين سادت الدعوة الإسلامية منهجية طريق الصواب ،

سألك جادة الحق وإن تغيرت وسائل التطبيق فيها على مراحل أربعة تابعة
للفترات التي مرت بالرسول ﷺ وبعده .

١ - الفترة الأولى بمكة :

نستطيع أن نسمى هذه الفترة فترة مصادعة ومصالمة ، لأن المؤمنين فيها
كانوا قلة مستضعفين لا يقوون على مجابهة عدوهم وهم سكان الجزيرة العربية
قاطبة من مشركين ويهود (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض
تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره) سورة الأنفال .

وقد أمرهم الله تعالى في هذه المرحلة بأن يصبروا على العدوان ولا يحاولون
دفعه بالقوة ما استطاعوا إلى الصبر سبيلا وأنى لهم بمحاولة الدفاع عن أنفسهم
وهم أفراد قلائل لا قوا من أذى قريش وتعتها ما لا قبل لهم به (فاعصوا
وامنعوا حتى يأتي الله بأمره) ، (ألم ترى إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم
وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) ، (سيهزم الجمع ويولون الدبر) .

٢ - الفترة الثانية فترة الإذن بالقتال :

لما كانت الهجرة واستطاع المؤمنون أن يثبتوا أقدامهم بالمدينة وأن
يقيموا شعائر دينهم ، وتمكنت منهم نواة الدولة الإسلامية أذن للمهاجرين
منهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضد الظلم الواقع عليهم من قريش (إن الله يدافع
عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور) أذن للذين يقاتلون بأنهم
ظالموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن
يقولوا ربنا الله) .

وهنا كانت الاشتباكات الدامية بينهم وبين قريش المعتدية حتى إذا كان

يوم بدر وقد ركب قريش رأسها لما رأت عزة الإسلام ، وأن الدولة دالت عليهم وصمت على الانتقام ليوم بدر هنا بدأت المرحلة التالية .

٣ - الفترة الثالثة :

في هذه الفترة أصبح القتال مفروضاً على المسلمين ضد هؤلاء العتاة . بعد أن كان مأذوناً فيه للمهاجرين منهم ، وكان هذا القتال مقصوداً على حرب قريش ومن حالفها من بني بكر وبعض يهود المدينة (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) واقتلوا حيث تقتضونهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) .

ظل الأمر بالقتال قاصراً على محاربة هؤلاء المعتدين طوال هذه الفترة حتى إذا كان يوم الأحزاب بدأت المرحلة الأخيرة .

٤ - الفترة الرابعة فترة الأمر بالقتال ضد مشركي الجزيرة العربية :

في هذا اليوم - يوم الأحزاب - استطاعت قريش أن تؤلب الجزيرة العربية على بكرة أبيها واختلاف قبائلها واستعانته بهم على حرب المسلمين والقضاء عليهم في عقر دارهم : ولم يكن المؤمنين طاقة بمواجهة هذه الجيوش الكثيرة فخذقوا على أنفسهم حول المدينة ، وكان نصر الله لهم في هذا اليوم نصراً مؤزراً بعد أن زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وزلزل المؤمنون في هذا اليوم زلزالاً شديداً ، وما كان الله لينذرهم على هذه الحال فأرسل على أعدائهم الرياح العاتية والرمال السافية وأيد المؤمنين بجنده فكانت القوة بعد الضعف والعزة بعد الهوان .

عندئذ أمر الله جنده المخلصين أن يقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة . وأعلنت الحرب العامة ضد جميع المعتدين قال تعالى : (وقاتلوا المشركين

كافة كما يقاتلونكم كافة) ، (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين) .

وإذا لنرى الدعوة إلى القتال منذ بدأت في أول العهد المدني حتى نهاية التنزيل ليس فيها دعوة إلى قتال مسلم مهما كانت عقيدته .

وإنما هي موجهة ضد المعتدين في جميع الأدوار التي مرت بها وإن تدرج التطبيق العملي في سير القتال .

هذا اللون من التشريع وإن اشتمل على تفاصيل دقيقة وحكيمة تحمى كثيراً من النظم والشريعات العادية وتنظم سير الدعوة وتؤمن طريقها وتحمل القائمين بها ، لم يخاف المبدئين الذين قررها في أول الدعوة - مبدأ الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومبدأ متباعدة العدوان بمثل - فهو ينتهى كما بدأ مصراً على مبادئه العادية الحكيمة .

خامساً: تفسير آيات الخمر الواردة في القرآن الكريم

قال الله تعالى: «ومن ثمرات النخيل والأعناب تمخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون» سورة النحل (٦٧) .

كان الناس منتمين بالخير والميسر حتى إنهم لو حرما من أول الأمر على سبيل القطع لانهرفوا الكثير من هم مدمنون لها عن الإسلام ، بل عن التفكير السليم المؤدى إلى الاهتداء به ، لأنهم حينئذ ينظرون إليه بعين السخط والتذمر فيرونه بخير صورته الحسنة ، فكان من لطف الله تعالى وبالحكمة الجليلة أن ذكرها أولاً لا على أنها محرمة صراحة ، بل على سبيل الإشارة كما في آية النحل ، ثم ذكرها في سورة البقرة بما يدل على تحريمها لا على القطع ، بمعنى أن فيها مجالاً للاجتهاد فيتركها من لم يتمكن فتلتها من نفسه ، ثم ذكرها في سورة النساء بما يقتضى تحريمها في الأوقات القريبة من وقت الصلاة ، إذ نهى عن قرب الصلاة في حال السكر فلم يبق للمسكر على شربها سوى الغبوق بعد صلاة العشاء وضرره قليل ، وكذا الصبح بعد صلاة الصبح لمن لا عمل له ولا يخش امتداد سكره إلى وقت الظهر . ثم تركهم على هذا الحال زمناً قوى فيه الدين ورسخ اليقين وكثرت الوقائع التي ظهر لهم بها إثم الخمر وضررها فناسب النهى عنها على سبيل القطع . وكان ذلك بعد غزوة الخندق على الراجح بأيام . اهـ من المنار والكشاف وأبى السعود .

ولنأخذ الآن في بيان الآيات وبالله التوفيق .

أما آية سورة النحل فهي تبين أن الناس قد اتخذوا من ثمرات النخيل والأعناب شراباً سكرًا — وكان ذلك قبل نزول آيات التحريم الصريحة —

ولذلك نرى القرآن يمتن عليهم ويسوى بين الشراب المتخذ من النخيل والشراب المتخذ من العنب على ما عليه الجمهور من العلماء .

والسكر : الشراب المحرم من ثمرتيهما .

والرزق المحسن : ما أحل من ثمرتيهما كالتمر والدبس والزبيب والنخل .
والآية تشير إلى الحرمة (١) حيث قابل السكر بالرزق المحسن (٢) والاتخاذ من قبلهم هم . (٣) وتذييل الآية ، كذلك يدل على منافاتها للعقل .

قال أبو السعود : والآية إن كانت سابقة النزول على تحريم الخمر فدالة على كراهتها وإلا فجامعة بين العقاب والمنة . اهـ ويؤول كلامه بعد نزول الآيات الصريحة .

اللغة : « ومن ثمرات النخيل والأعناب ، متعلق بما يدل عليه الإسقاء من مطاق الإطعام الذى يفتضم المطعوم والمشروب . أى ونطعمكم من ثمرات النخيل والأعناب . أو ، تتخذون ، وأتى بالجار والمجرور للتأكيد . وعلى الأول يكون قوله : « تتخذون » استئناف لبيان كنه الإطعام وكشفه . أو هو خبر لمبتدأ محذوف أى ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه . وناسب ذكر « يعقلون » هنا حيث إن العقل أشرف المخلوقات فى الإنسان ، ولهذا حرم الله الاثربة المسكرة عليه صيانة للعقل ، ومن هنا قالوا : إن الآية وإن لم تكن صريحة فى التحريم لكنها تشير إلى أنها حرام .

ثم قال تعالى : « يستلونك عن الخمر والميسر » قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ... سورة البقرة (٢١٩) .

سبب نزول الآية : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ومعه جماعة من الصحابة : اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً فإنها مذهبة للعقل . فنزلت

الآية ، يسئلونك عن الخمر والميسر .. فدعى عمر وقرئت عليه الآية فقال :
 اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً .. فنزلت : يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة
 وأنتم سكارى .. فقال عمر بعد أن قرئت عليه الآية : اللهم بين لنا في الخمر
 بياناً شافياً .. فنزلت (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام
 رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه .. فدعى عمر وقرئت عليه فقال : انتهينا (١) .

وروى غير هذا : أن عمر ومماذا ونقرأ من الصحابة سألوا الرسول ﷺ
 في حكم الخمر ، فنزلت آية البقرة .. فشربها قوم وتركها آخرون . ثم إن
 عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً ودعا إليه أصحاب رسول الله ﷺ وكان
 فيهم علي بن أبي طالب ، فأكلوا وشربوا الخمر - وذلك قبل التحريم - فسكروا
 وأخذت الخمر منهم ، ثم إنه حضرت صلاة المغرب ، فتقدم للصلاة بهم
 عبد الرحمن بن عوف أو علي بن أبي طالب فقرأ : قل يا أيها الكافرون : أعبد
 ما تعبدون .. فنزلت آية النساء ، فقل من شربها منهم وكانوا عند حضور
 أوقات الصلاة يجتنبوها ، وكان منادى الرسول ﷺ ينادى عند حضورها
 : ألا يقرن الصلاة سكران . ثم إن أحدهم (٢) دعا ناساً من الصحابة وكان
 فيهم سعد بن أبي وقاص ، فلما سكروا ذكروا الأنساب وتفاخروا بها ، وقالت
 الأنصار : الأنصار خير ، وقالت قريش : قريش خير ، وأنشد سعد شعراً فيه
 هجاء الأنصار ، فأهوى أحدهم باحى جرود فضربه على أنفه ففزره - فكان
 سعد مفزور الأنف - قال سعد : فأيت النبي ﷺ فذكرت له ذلك فنزلت :
 يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر .. فقال عمر : انتهينا يارب (٣) .

(١) أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي .

(٢) هو عتبان بن مالك .

(٣) ذكره السيوطي في أسباب النزول عن الإمام أحمد .

هذا : وقوله (يسمونك) ليس فيه بيان أنهم سألوا عن أى شيء . وقوله
(قل فيهما إثم كبير ...) دل على أن السؤال عن الحل والحرم . . (١)

ما هي الخمر ؟

الخمر : مأخوذة من خمر إذا ستر ، ومنه خمار المرأة ، ومنه ذلك الشجر
المتف يقال له : الخمر ، لأنه يغطي ما تحته ويستره ، ولما كانت الخمر تستر
العقل وتغطيه سميت بذلك .

وقيل : سميت بذلك لأنها تركت حتى أدركت ، فيقال : اختمر العجين
إذا بلغ إدراكه ، واختمر الرأى أى ترك حتى يتبين الوجه فيه .

وقيل : إنما سميت بذلك لأنها تخلط العقل ، ومنه قولهم : دخلت في خمار
الناس . أى : اختلطت بهم .

فالمعنى الثلاثة متقاربة : فالخمر تركت وخمرت حتى أدركت . ثم خالط
العقل . ثم خمرته . والأصل الستر . . اهـ من القرطبي يتصرف .
وأما عند الفقهاء فهم على خلاف فيها :

(١) فممن الإمام أبي حنيفة وسفيان الثوري وإبراهيم النخعي وأبو
يونس أنى ليلي وغيرهم من فقهاء الكوفة أنها الشراب المسكر من عصير العنب فقط
فقط . أما من غيره فلا . . ولا يحرم القليل من غيره إذا أسكر الكثير منه بل
هر حلال . . فإذا سكر من كأسين ولا يسكر من واحدة فالحرم الثانية فقط
دو الأولى ، لأن الخمر ههنا من عصير العنب فقط ، أما من غيره فهو الخمر
النبيذ كالتمر والشعير .

وقد احتجوا بأدلة منها : ما أخرجه الطحاوي عن أبي موسى قال : « بعثني رسول الله ﷺ أنا ومعاذاً إلى اليمن فقلنا يا رسول الله إن بها شرابين يصنعان من البر والشعير أحدهما يقال له : المزر ، والآخر يقال له : البتع . فما نشرب ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « إشراباً ولا تسكراً ، وذلك لأن قليل الأنبة ليس بمحرم ، حيث إن الله تعالى ذكر في علة التحريم قوله : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم المداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) فوجب لهذه العلة ألا يحرم من المسكرات إلا القدر المسكر ، ثم إن الإجماع قد انعقد على تحريم الخمر قليلاً وكثيراً فيبقى قليل النبيذ على الأصل ، من الإباحة .

(ب) وعند الإمام مالك والشافعي وأحمد والحجازيين : أن الخمر كل مسكر من عصير العنب وغيره . . . وما أسكر كثيره فقليله حرام ، مطلقاً .

والحق في جانب الحجازيين فقد قال الرسول ﷺ فيما يرويه عنه النعمان بن بشير : « إن من الخنطة خمرأ ، ومن الشعير خمرأ ، ومن الزبيب خمرأ ، ومن التمر خمرأ ، ومن العسل خمرأ ، رواه الخمسة إلا النسائي . زاد أبو داود وأحمد : « وأنا أنهى عن كل مسكر » .

وعن أبي موسى قال : قلت يا رسول الله أفئتنا في شرابين كنا نهنهما باليمن : البتع — وهو من العسل — يئذ حتى يشتد ، والمزر — وهو من الذرة والشعير — يئذ حتى يشتد ، قال : وكان رسول الله ﷺ قد أعطى جوامع الكلم بخواتمه ، فقال : « كل مسكر حرام ، متفق عليه .

وعن ابن عمر أن عمر قال على منبر النبي ﷺ : « أما بعد : أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة : من العنب ، والتمر ، والعسل ، والخنطة والشعير ، والخمر ما خامر العقل ، متفق عليه .

والصحابه - رضوان الله عليهم - لما سمعوا تحريم الخمر فهموا منه تحريم
الأنبذة ، وهم أعرف الناس بمراد الشارع ولغة العرب ، وقد ثبت ذلك من
حديث أنس رضي الله عنه قال : « إن الخمر حرمت والخمر يؤمئذ البسر والتمر »
متفق عليه .

وفي لفظ قال : « حرمت علينا حين حرمت وما نجد خمر الأعناب إلا
قليلا وعامة خمرنا البسر والتمر » رواه البخاري . ثم إن علة تحريم الخمر
موجودة في غيره أيضاً ، فإما أن يجب القطع بأن كل مسكر خمر ، وإما أن يلزم
الحكم بالحرمة في كل مسكر (١) . إذن فالأنبذة محرمة قطعاً لهذه النصوص
ولإجماع الصحابة رضوان الله عليهم فما أسكر كثيره فقليله حرام .

هذا . . وقد ذهب بعض الأئمة : إلى أن الخمر حرمت بهذه الآية ، وأن
ما أتى بعدها تأكيد ، لأن الإثم يفيد التحريم ، قال تعالى : (قل إنما حرم ربي
الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم) الآية . . فهذه الآية تحذر أن فيها إثماً
فهى حرام ، فالتأمل في الآية يجد أنها تقول : « قل فيهما إثم » فالإثم الذي فيها
هو الحرام اهـ . قرطبي .

ثم قال تعالى : (قل فيهما إثم كبير) ، (ومناهي للناس) .

أما إثم الخمر : فما يصدر عن شاربها من فحش الكلام وبذي الألفاظ ،
والمخاصمة ، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وزوال العقل الذي به يعرف
ما يجب للخالق سبحانه ، ثم إن الشارب يصير أضحوكة للعقلاء وربما يتصرف
كمتصرف المجانين ، فالحق شوهده بعضهم يسمح بيوله وجهه ويقول : اللهم

أجماع من التوابين وأجماع من المتطهرين . ورؤى بعضهم والكتاب يلاحظ
وجهه وهو يقول : أكرمك الله .

ومن مضرات الخمر الصحية إفساد المعدة وسرعة سريان التشوه لخطاها
ووجوه عينية . وقد قرر أحد الأطباء الألمان أن ابن الأربعة منهم يكون
فسيج جسمه كنسيج جسم ابن الستين ، ويكون كاهرم جسمًا وعقلًا .
ومنها : مرض السكر والسكلى ومرض السكر الذى يضعف القوة العقلية
عندهم وكثيراً ما ينتهى بالجنون . وكذلك مرض السل الذى ينتشر بينهم
بشكل كبير .

وقال أحد الأطباء : إن مما زجة الخمر للدم تعوق دورته وقد توقفها فجأة
فيموت السكران . اهـ .

ومن مضراتها المالية : استنزاف المال واستنزاف الثروات . ومن هنا سميت
الخمر : أم الخبائث .

وأما نفعها : فأهمها التجارة والربح الوفير ، فإنهم كانوا يجلبونها من الشام
بثمان بختس ، ويبيعونها فى الحجاز بربح هائل ، وكانوا لا يرون المما كسة فيها
فيشتري طالب الخمر الخمر بالثمان العالى ، هذا أصح . اقل فى منفعتها . اهـ من القرطبي .

وقال الطبري : إن منافع الخمر كانت أثمانها قبل تحريمها وما يصلون إليه
بشرها من اللذة . كما قال الأعشى فى صفتها :

لنا من سماها خبز نفس وكآبة وذكري هموم ما تفك أداتها
وعند العشاء طيب نفس ولذة ومال كثير عده نشواتها
قيل : ومن منافعها أيضاً أنها تهضم الطعام ، وتقوى فى الباء ، وتصحى
البخيل ، وتدر البول ، وتصحى اللون ، وتشجع الجبان .

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

ونشرها فتركتنا ملوكا وأسداً ما بينهما (١) اللقاء

حكم التداوى بها :

قال بعضهم : إنما قد تكون علاجاً لبعض الأمراض ، ولكن في سنن
أبي داود : « إن الله أنزل الداء والدواء ، وجعل لكل داء دواء ، فتداؤوا
ولا تداؤوا بحرام » .

ومن فتاوى الشيخ محمد عبده رحمه الله : جواز التداوى بها بشرط ألا
يقصد التداوى بها اللذة والنشوة ، ولا يتجاوز مقدار ما يحدده الطبيب المسلم
الورع ، والضرورات تقدر بقدرها (٢) . أما دخول نقط منها في الدواء . أى
أن الخمر تكون عنصراً من عناصر علاج مركب وأجزاء الخمر فيه مغلوقة
لأغالبية وأيس من شأنها أن تسكر فهو كالقليل من الخمر في الثوب (٣) .

قال تعالى : (وإثمها أكبر من نفعها) .

أى أن المفسد المترتبة على تعاطيها أعظم من الفوائد المترتبة عليه —
وإنما كان ذلك في الخمر ، لأنهم كانوا إذا سكبوا وثب بعضهم على بعض وقاتل
بعضهم بعضاً . وعن ابن عباس : ما يذهب من الدين والإثم فيه أكبر مما
يصلحون في فرحها إذا شربوها . . أه طبرى .

(١) أى ما بينهما .

(٢) المنار .

(٣) كتاب الحلال والحرام في الإسلام ليوסף القرضاوى .

وفي النيسابوري : « ولا ريب أن منافع الخير والميصر لكونها مظلونة حاجلة أقل من إثمهما . لكونه متيقن الحساب الدائم العذاب ، والعاقلة لا يختار النفع القليل الزائل بعقاب أبدى لانهاية له . »

وفي تفسير المنار : « هذه الآية إرشاد للمؤمنين إلى طريق الاستدلال ، فكان عليهم أن يهتدوا منه إلى قاعدة : دهر المفاسد مقدم على جلب المصالح وقاعدة ترجيح ارتكاب أخف الضررين إذا كان لا بد من أحدهما ، اهـ .
بتصرف ،

ثم قال الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون . . . النساء (٤٣) .

قال أبو داود والترمذي وحسنه وكذا النسائي والحاكم وصححه في سبب نزول هذه الآية .

عن علي — كرم الله وجهه — قال : « صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت منا ، وحضرت الصلاة فقدموني ، فقرأت : قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ونحن نعبد ما تعبدون ، فنزلت . »

وفي رواية ابن جرير وابن المنذر عن علي : « أن إمام القوم يومئذ هو عبد الرحمن ، وكانت الصلاة صلاة المغرب ، وكان ذلك لما كانت الخمر مباحة .
وسبب النزول هذا يدين أن المراد من الصلاة حقيقة ، خلافاً لما قاله

بعضهم من أن المراد مواضع الصلاة ، ولما قال بعضهم من حمل اللفظ على الأمرين معاً جمعاً بين الحقيقة والمجاز .

قال أبو السعود : ويأباه قوله تعالى : (حتى تعلموا ما تقولون) فالمعنى لا تقيموها في حال السكر حتى تعلموا قبل الشروع ما تقولونه ، إذ بترك التجربة يظهر أنهم يعلمون ما يقرءونه في الصلاة ، اهـ .

هذا ... وقد قال بعضهم : إن الآية تدل على جواز التكليف بالمحال بل على وقوعه ، حيث إن الأمر قد وجه إلى السكران وهو في غير وعيه .

وللرد على هذا قال الشيخ رشيد رضا : والجواب عنه من وجوه :

(أحدها) : أن الخطاب موجه إلى المسلم قبل السكر بأن يجتنبه إذا ظن أنه ينتهي به إلى التلبس بالصلاة في أثنائه ، فهو أمر بالإحتياط واجتناب السكر في أكثر الأوقات .

ولذا قال العلماء : إن هذه الآية تمهيد لتحريم الخمر قطعياً ، فإن من يتقى شربها خوفاً من دخول وقت الصلاة يتركها عامة نهاره وأول الليل ، ويصبح وقد زال عنه السكر .

(ثانيها) : أن الأمر موجه إلى جمهور المكلفين لأنهم متكفلون وعليهم أن يمتنعوا السكران من الدخول في الصلاة .

(ثالثها) أن السكر الذي يطلبه الهواة لا ينافي الفهم ، بل هو للثبوت والسرور ، ففي هذه الحالة يفهم السكران الخطاب ، وإن كان لا يستطيع أن يضبط أعماله ولا أن يجمع أفكاره .. اهـ . بهصرف .

اللغة : (حتى ، للغاية . وهذا يدل على وجوب معرفة اللغة وفهمها على كل مسلم لفهم ما يقول في الصلاة : وقيل (حتى) للعلة .

وتصدّر الآية بحرفي النداء والتنبيه : المبالغة في حماهم على العمل بموجب
النهي . . اه أبو السعود .

وقوله : (حتى تعملوا ما تقولون) هذا أحسن ما يقال في حد السكران
من أنه الذي لا يدري ما يقال ، ولذا قل أبو حنيفة : إنه الذي لا يفرق بين
الأرض والسماء .

ثم قال تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من
عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم
العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم
منتهون * وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن أوأيتم فأعدوا إنما على
رسولنا البلاغ المبين * ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا
إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا
والله يحب المحسنين) المائدة (٩٠ - ٩٣) .

مناسبة الآيات لما قبلها :

ذكر الله تعالى فيما قبل من الآيات حل الطيبات وإباحة الأكل من الحلال
بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا
تعبدوا إن الله لا يحب المعتدين * وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله
الذي أنتم به مؤمنون) . . . الآيتان (٩٠ - ٩١) . وكانت الخمر والميسر
من الطيبات عندهم ثم هذه الآيات تبين أنهما غير داخلين في جملة الطيبات ، بل
هما من المحرمات .

وبين الله في هذه الآيات أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس مستقذر تعافه الطباع السليمة والعقول التي أصابها قبس من نور .

سبب نزول الآيات :

في مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود والنسائي والترمذي أن عمر كان يدعو قائلاً : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، . . الحديث . . وفيه أنه لما نزلت آية المائدة دعى فقرأت عليه فلما بلغ قول الله تعالى : (فهل أنتم منتهون) قال : انتهينا انتهينا .

وعن ابن عباس قال : إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا فلما ثملوا عبت بعضهم ببعض ، فلما أن أصبحوا جعل الرجل منهم يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته ، فيقول : صنع بي هذا أخى فلان ، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن ، والله لو كان رد وفارحياً ما صنع بي هذا ، حتى وقعت اللصغائن في قلوبهم ، فأنزل الله هذه الآية . . . فقال ناس من المتكافرين : هي رجس وهي في بطن فلان قتل يوم بدر ، وفي بطن فلان قتل يوم أحد فأنزل الله : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح . . .) رواه ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي ، والحاكم وصححه .

وروى غير هذا في سبب النزول ما تقدم من رواية ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وغيرهم من أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص . . . قال سعد : في نزل تحريم الخمر . . صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا فأقاه ناساً فكلوا وشربوا حتى انتشوا من الخمر - وذلك قبل تحريم الخمر - فتفاخروا فقالت الأنصار : الأنصار خير ، وقالت قريش :

قريش خير . . فأهوى رجل بلحى جزور - أو لحى بعير - فضرب على أنفى
ففززه - فكان سعد مفزور الأنف - قال : فأثبت النبي ﷺ فذكرت له ذلك
فزلت هذه الآية .. فقال عمر : انتهينا يا رب .

اللافة : (رجس) : أى قدر تعاف عنه العقول . وإفراذه لأنه خبر الخمر
وخبر الماطوقات عليه محذوف ثقة بالذكور . أو المضاف محذوف أى شأن
الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس (من عمل الشيطان) : محله الرفع
على أنه صفة رجس أى كائن من عمله لأنه سبب من تسويله وتزيينه (فاجتنبوه)
أى إذا كان الأمر كما ذكر فاجتنبوه . والضمير يعود إلى المذكور أو إلى
الرجس (اعلمكم) معناها الترحى أو التعليل . اه . أبو السمود .

وقوله : (إنما يريد الشيطان . .) تقرير للنهى عن تعاطى المذكور ،
وهو إشارة إلى مفاسد الخمر والميسر الدنيوية . وقوله (ويصدكم عن ذكر الله
وعن الصلاة) إشارة إلى مفاسدها الدينية .

قوله (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) عطف على فاجتنبوه .

قوله (جناح) أى لثم وخرج (طعموا) أى تناولوا أكلا وشرباً ،
وطعم يستعمل بمعنى شرب أيضاً ، قال تعالى (ومن لم يطعمه فإنه منى) . اه
أبو السمود .

الشرح :

ينادى الله الذين آمنوا مصدرا للنداء بحرف التثنية لإجلال لما يأتى من
حكم من ترك الخمر والميسر اللذين استقرا فى النفوس وصار من العسير
اقتلاعهما ، إلا بحكمه وروية من الله الذى فطر الأنفس ، وكانت هذه الآية
فى مرتبة ثالثة بعد آيتى البقرة والنساء ، ولما نزلت آيتنا هذه قال عمر :

أقرنت بالميسر والأنصاب والأزلام ؟ بعداً لك وسحقاً ، فتركها الناس .
 ووقع في الصدور منها ، وقالوا ما حرم الله علينا شيء أشد من الخمر ، حتى
 جعل الرجل يلقى صاحبه فيقول : إن في نفسي شيئاً ، فيقول صاحبه : لعلي
 تذكر الخمر ! فيقول : نعم ، فيقول : إن في نفسي مثل ما في نفسك .
 اه منار .

يقول : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَكُلُّ مَا يَخْمَرُ الْعَقْلَ وَيَخَالِطُهُ وَالْمَيْسِرُ
 وَالْقَهَارُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ وَهِيَ الْحِجَارَةُ الَّتِي كَانُوا يَذْبَحُونَ قُرَابِيئَهُمْ عِنْدَهَا
 وَالْقَطْعُ الْخَشَبِيَّةُ الْمَصْنُوعَةُ تَفَاؤُلًا أَوْ تَشَاؤُمًا : رَجَسَ مُسْتَقْدَرُ كَائِنٍ مِنْ عَمَلِ
 الشَّيْطَانِ ، فَاجْتَنِبُوا هَذَا الرَّجَسَ وَاجْتَنِبُوا كُلَّ مَا ذَكَرَ رَجَاءُ أَنْ تَفُوزُوا
 بِتَرْكِه أَنْفُسَكُمْ وَتَحْلِيَّتِهَا بِذِكْرِ رَبِّكُمْ وَالْبَعْدُ عَنِ الْأَحْقَادِ وَالضَّغَائِنِ ، وَتَمَاطِي
 هَذَا يَصْدُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَانْتَهَوْا وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ
 وَنَهَى عَنْهُ وَمِنْ ذَلِكَ الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ بِالْأَوَّلَى .

وترى القرآن يقرن الرذائل المالية الاجتماعية - الخمر والميسر - بالأنصاب
 والأزلام وهما من الرذائل الاعتقادية ، وصوى بينهما في القذارة ووجوب
 البعد عنها ، وأن كل ذلك لا يليق شيء منها بأهل الحنيفية البيضاء .
 وبعد أن ذكر الله العلة الدنيوية والعلة الدينية للتحريم قرن ذلك بقوله :
 (فَمَنْ أُنْتَهَى مِنْهُ) ؟ استفهام يتضمن الأمر بالانتهاء ، وهذا من أبلغ
 ما ينهى به .

وذكر الكشف وجوهاً تؤكد تحريم الله تعالى للخمر والميسر استمداً
 من الآيتين ، منها :
 ١ - جعل الله تعالى الخمر والميسر رجساً ، وهي كلمة تدل على منتهى
 القبح والخبث .

٢ - صدر الجملة بأنها الدالة على الحصر .

٣ - قرنهما بالانصاف والازلام وهما من خرافات الشرك وأعمال الوثنية .

٤ - جعلهما من عمل الشيطان وهو موجب لغضب الرحمن تعالى .

٥ - جعل الأمر بتركهما من مادة الاجتناب ، وهو يفيد الأمر بالترك مع البعد عن المتروك ، بأن يكون التارك في جانب بعيد عن جانب المتروك .

٦ - جعل اجتنابهما مرجاة للفلاح ، إذن فارتكابهما أس الخسران وموجب للخيبة في الدنيا والآخرة .

٧ - جعلهما مثاراً للعداوة والبغضاء ، وهما أصل المعاصي على اختلاف أنواعها .

٨ - جعلهما صادين عن ذكر الله وعن الصلاة وهما مخ العباداة وعمود الدين .

٩ - الأمر بالابتعاد عنهما بصيغة الاستفهام المقرون بفاء السببية .

١٠ - الأمر بطاعة الله والرسول ، والتحذير من مخالفتهم ، والوعيد بالتهديد لمن تولى وأعرض . اهـ .

هذا . . ولم يؤكد القرآن مثل هذه التأكيدات في شيء حرمه مثلاً فعمل في الخمر والميسر ، وذلك لشدة ولوع الناس بهما ، حتى كانوا يؤولون ما يمكن أن يتطرق إليه الاحتمال من أحكام تخالف أهواءهم .

نعم أجابت الصحابة نداء الله تعالى وحرموا على أنفسهم الخمر تحريماً قاطعاً لا هوادة فيه ، وحرموا على أنفسهم التعامل بها بأي وجه من وجوه المعاملات ، وروى الترمذي وابن ماجه أن رسول الله ﷺ لعن في الخمر .

عشرة : د عامرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحملة إليه وسافرها وبائعها
 وآكل ثمنها والمشتري لها والمشتري له ، وقال الترمذى حديث غريب .
 بل حرم الرسول ﷺ أن تهدي الخمر ولو ليهودى : فقد روى الحميدى
 فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً كان يهدى للنبي ﷺ راوية
 خمر فأهداها إليه عاماً وقد حرمت . فقال النبي ﷺ : إنها قد حرمت ، فقال
 الرجل : أفلا أبيعها ؟ فقال : إن الذى حرم شربها حرم بيعها ، قال أفلا أكارم
 بها اليهود ؟ قال : إن الذى حرّمها حرم أن يكارم بها اليهود . قال : فكيف
 أصنع بها ؟ قال : شنها على البطحاء (١) . اهـ . نيل الأوطار ج ٨ ص ١٧٥ .
 بل أكثر من ذلك ما علم من أن الإسلام يتبع طريقة سد الذرائع إلى
 الحرام ، ولذا حرم على المسلم أن يبيع العنب لمن يعرف أنه سيعصره خمرأ .
 روى الطبرانى فى الأوسط وحسنه الحافظ بن حجر فى بلوغ المرام حديث
 " من حبس العنب أيام القطف حتى يبيعه من يهودى (٢) أو نصرانى أو ممن يتخذ
 خمرأ (٣) ، فقد تقحم النار على بصيرة " .

وعلى هذه السنة أمرنا الإسلام أن تقاطع مجالس الخمر . فقد روى الإمام
 أحمد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول
 " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة تدار عليها الخمر " .

ويروى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أنه كان يجلد شارب الخمر
 ومن شرب مجلدهم وإن لم يشرب معهم . ولما رفع إليه قوم شربوا
 الخمر أمر بجلدهم ، فقيل له : إن فيهم فلاناً وقد كان صائماً ؟ فقال : به أبدأوا .

(١) هذا الأمر يدل على حرمة التعامل فى الخمر مطلقاً وفى كل الأحوال حتى مع

غير المسلمين . (٢) أى ليهودى .

(٣) أى ولو كان مسلماً .

أما سمعتم قول الله تعالى : (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره . إنكم إذا مثلهم . . .)

جزاء من شرب الخمر :

قرن الله تعالى شرب الخمر وأحب الميسر بالأنصاب والأزلام وحكم عليها جميعاً بأنها رجس ، إذن فهي مثلاً في الإثم ، وهنا يوردون حديثاً رواه ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مدمن الخمر كعابد وثن » .

وروى الطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن عمر : « الخمر أم القواحش وأكبر الكبائر ، ومن شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أمه وعالته وعيته » .

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها جرمها في الآخرة ، رواه الجماعة إلا الترمذي » .

وروى أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

هذا . . . وقد كان يؤتى بالشارب في عهد النبي ﷺ فيضرب بالأيدي والجريد وبالسياب والنفال ، .

وفي حديث أنس عند أحمد والترمذي وأبي داود ومسلم : « أن النبي ﷺ أنى رجل قد شرب الخمر فجلد بجريدتين نحو أربعين » . قال وفعله أبو بكر .

فلما كان عمر استشار الناس فقال عبد الرحمن : أخف الحدود ثمانون .
فأمر به عمر .

وفي الصحيحين عن علي كرم الله وجهه : ما كنت لأقيم على أحد حداً
فيموت وأجد في نفسي شيئاً . إلا صاحب الحجر ، فإنه لو مات وديته . وذلك
أن رسول الله ﷺ لم يسنه . وروى الدارقطني عن علي رضي الله عنه قال :
« إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى وعلى المفترى ثمانون
جلدة » .

وكان عثمان بن عفان يقول : « اجتنبوا الخمر فإنها أم الحبائث ، إنه كان
رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس ، فعلقته امرأة غوية ، فأرسلت
إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة ، فدخل معها ، فطفقت كلما دخل باباً أغلقت
دونه ، حتى أفضى إلى امرأة وضئته عندها غلام وباطية خمر ، فقالت : إني
والله ما دعوتك لشهادة ولكن دعوتك لتمع على أو تقتل هذا الغلام أو تشرب
هذا الخمر . فسقته كأساً فقال زيدوني . فلم يرم حتى وقع عاياً وقتل النفس .
فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج
صاحبه ، رواه البيهقي .

من هذه الآثار ندلم تشديد الإسلام في الخمر ، وكيف أن الصحابة رضوان
الله عليهم اجتهدوا في حد الشارب . وأن النبي ﷺ لم يسن حد الخمر . لأن
ضربه أربعين مرة واحدة لا يعد سنة مخدودة له مع مخالفته غيره مرة . وإنما
صار سنة عملية لجرى أبي بكر عليه . ويستفاد من الروايات أن المشروع
في العقاب الضرب قصد الإهانة للشارب وتنفير الناس من الشرب . اهـ . من
المعار ملخصاً .

ثم قال تعالى :

« ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا
و آمنوا و عملوا الصالحات ثم اتقوا و آمنوا ثم اتقوا و أحسنوا والله يحب
المحسنين » . المائدة (٩٣) .

لما أنزل الله تعالى تحريم الخمر بعد غزوة الأحزاب قال رجل من أصحاب
النبي ﷺ : أصيب فلان يوم بدر و فلان يوم أحد و هم يشربونها . ونحن نشهد
أنهم في الجنة . . .

وفي رواية : اصطبح ناس الخمر من أصحاب النبي ﷺ ، ثم قتلوا
شهداء يوم أحد ، فقالت اليهود : فقد مات بعض الذين قتلوا و هي في
بطونهم ، فأنزل الله تعالى : « ليس على الذين آمنوا . . . الآية » . أي : ليس
على الذين آمنوا و عملوا الصالحات ثم فيما أكلوا أو شربوا ، إذا اتقوا أن
يكون في ذلك شيء من المحرمات ، وإلا لم يكن في الجناح في كل ما طعموه
بل في بعضه و لا محذور فيه ، واستمروا على الإيمان و الأعمال الصالحة ،
ثم اتقوا ما حرم عليهم بعد ذلك مع إباحته فيما سبق ، و آمنوا بتحريمه
و استمروا على هذا الإيمان ، ثم اتقوا عما كان مباحاً من قبل و عملوا
الأعمال الحسنة .

و ليس تخصيص هذه المرات بالذكر لتخصيص الحكم بها بل لبيان التعدد
و التكرار بالفاء ما بلغ . . . و قيل : التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة . . .
أو باعتبار الأحوال الثلاث : استعمال الإنسان التقوى بينه و بين نفسه

وبينه وبين الناس وبين الله عز وجل ، ولذا جرى بالإحسان في الذكر
الثالثة بدل الإيمان ... أو التكرير باعتبار المراتب الثلاث : المبدأ والوسط
والمنتهى ...

وقيل : التكرير لمجرد التأكيد كما في قوله تعالى : « كلا سوف تعلمون »
ثم كلا سوف تعلمون « ... والله يحب المحسنين ، تذييل ، مقرر لمضمون
ما سبق . اهـ . أبو السعود .

سادساً : القرآن والأسرة

إن القرآن الكريم اهتم بالأسرة أبلغ اهتمام ، لأنها الدعامة الأولى التي يَشِيدُ عليها صرح المجتمع الإنساني الكبير ، وهي المقياس الذي يحسبكم به على أي مجتمع من المجتمعات بالصلاح ، أو الانهيار ، وبالقوة ، أو الضعف .

لذلك نرى القرآن الكريم يحافظ على الأسرة من مبدأ تكوينها ، ويحفظها بسياج منيع من التعليل والآداب التي تكفل بقاها في أمان وازدهار ، تظلمها السمادة والهناء حتى تؤدي دورها في المجتمع الكبير .

بيد أن هذا الموضوع متعدد الجوانب متشعب المناحي ، لذلك رأينا أن نقصر بحثنا على النقاط التالية :

١ - اهتمام الإسلام بالأسرة .

٢ - حقوق كل من الزوجين قبل الآخر .

٣ - تعدد الزوجات في القرآن الكريم .

٤ - حقوق الأبناء على الآباء ، وحقوق الآباء على الأبناء .

٥ - علاج القرآن لمشاكل الأسرة .

١ - تكوين الأسرة

خلق الله المرأة من الرجل ، وأودع في كل منهما ميلا إلى الآخر . قال تعالى (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) .
سورة الأعراف .

والله تعالى العالم بنفوس عباده لم يدع هذا الميل يجمع بكل من الرجل والمرأة ، بل أراد أن يحوطه بتشريع دقيق حكيم .
تصان فيه الأنساب عن الاختلاط ، وتحفظ فيه الأعراض عن الانتهاك .
لتحقق حكمة الله تعالى في اختياره الإنسان خليفة في الأرض .

لذلك شرع الله الزواج وأمر به في كتابه العزيز في أكثر من موضع .
قال تعالى : (وأطيعوا الأيادي منكم والصالحين من عبادكم وإيمانكم) سورة
النور ، وهذه الآية لم تفرق في الأمر بالنكاح بين حر وعبد ، وذلك إذا
توفرت فيهم أهلية النكاح ، وتوفرت لهم مؤنة .

ولم يكتف الإسلام بالأمر بالنكاح بل رغب فيه وحض عليه ، وجعله من
أعظم النعم التي امتن بها على الإنسان من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض
ومن عليها ، لأن في ذلك تحقيقاً لمصالح عظيمة للإنسان ، ففيه طلب النسل ،
وتحصين للمؤمنين عن كل ما يغضب الله تعالى ، وإن شئت فقل : إن فيه
ما يحمل على تقوى الله تعالى . قال تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي
خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)
سورة النساء .

وقد حرص القرآن على طلب الزواج في أكثر من موضع ، فتراه

يسألك في عداد النعم الكونية وغير الكونية التي استدل بها على وجود الله سبحانه وتعالى ووجدانيته . قال تعالى (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات) . سورة النحل . وقال : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) سورة الروم .

فأنت ترى أن الله تعالى آمن على الإنسان في هذه الآية بثلاث نعم :

أولا : خلق له زوجا .

ثانياً : جعله يسكن إليها .

ثالثاً : جعل بينهما المودة والرحمة .

وذلك يدل بوضوح على ترغيب الإسلام في الزواج ، ودعوته إليه بشئ الوسائل .

وقد بنى الإسلام العلاقة بين الزوجين على حسن العشرة وكريم المودة ، فاعتبر كلا من المرأة والرجل مخلوقين لها كرامتهما ،

قال تعالى : (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) . سورة البقرة ، كما أمر بعدم إضرار المرأة من قبل زوجها أو غيره . قال تعالى : (لا تضار المرأة بولدها ، ولا مولود له بولده) سورة البقرة .

٢ - حقوق كل من الزوجين على الآخر

حقوق الزوجة : أوجب الله تعالى حقوقاً كثيرة على الزوج لزوجته ، وأول هذه الحقوق التي تنشأ مع بدء الحياة الزوجية هو الصداق ، وقد شرع الله تعالى تنمية للعلاقة بين الزوجين وتراً كيداً لعوامل الآفة والمحبة بينهما ، وقد جعل الله تعالى هذا الصداق حقاً خالصاً للمرأة يقدمه الزوج في مبدأ الزواج ، وحرص على تسميته في العقد حتى تتحدد العلاقات بينهما على ضوءه ، ويعلم الزوج أنه المسؤول عن جميع الالتزامات المالية الخاصة بالأمرة . قال تعالى (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) سورة النساء . كما اعتبره ملكاً خاصاً بالمرأة ، فلا يجوز لزوجها أن يأخذ منه أي شيء إلا عن طيب نفس منها . قال تعالى (فإن طبن لکم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) سورة النساء .

كما نهى الله تعالى الزوج عن التحايل لأخذ ما أعطاه لزوجته من صداق مهما كانت الأسباب ، قل صداقه أو كثر . قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهماً ، ولا تفضلوهن لنفوسهن ببعض ما آتيتموهن سورة النساء .

فإن تری أن الله تعالى نهى أن یزوجن قسراً وقهراً ، كما نهى عن أخذ شيء من صداقهن إلا فی حال نشوزهن ، فللزوجة حیث أن یطلب الله المهر أو بعضه خلعاً . علی أن الزوج إذا أراد أن یتبدل بها زوجاً آخر فلا یجوز له أن يأخذ شيئاً من مالها ، وكيف یصح له هذا وقد أفضى كل منهما إلى الآخر الآخر واطلع كل منهما من صاحبه علی ما لا یحل للأب أو الأم أو الابن أن یطلب یتطلب علیه . قال تعالى : (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتیتم إحداكم إعداكم)

تقطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً (سورة النساء .

وقد أوجب الله على الزوج حقوقاً أخرى غير الصداق ، كالنفقة والسكنى واعتبرهما حقاً واجباً من الزوج لزوجته ، لأنها حبيت نفسها من أجله ، كما جعلهما مخصصان لحال الزوج يساراً وإعساراً . قال تعالى : (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاهما) سورة الطلاق .

وقد حث الإسلام الزوج على تربية زوجته وتأديبها وتعليمها أمر دينها حتى لا يستبد بها الشيطان وحتى تقوم بتربية أولادها بأقوم سبيل . وقد أمر الله تبارك وتعالى كلا من الزوجين أن يكون أميناً في حق الآخر ، ماله وعرضه في حال غيبته وحضوره .

حقوق الزوج على زوجته : يجب على المرأة حقوق تؤديها لزوجها وهي تنحصر في طاعته في كل ما يأمر به مما لا يتعارض مع الشرع ومبادئه . وهذه الطاعة سببها شيطان :

الاول : خلقى ، وذلك بأن أودع الله في الرجال القوة والعزم والبهر بعواقب الأمور والقدرة على التنفيذ ، فهم يرجعون في كل أمورهم إلى عقولهم وما أودع الله فيهم من حكمة وبصيرة ، بينما تتغلب على المرأة عواطفها ، وقد يكون لها من الأثر في تصرفاتها ما يخرجها عن وجه العواطف والحكمة ، فهي تميل مع عواطفها أينما مالت ؟ وإلى ذلك أشار القرآن الكريم بقوله : (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض) سورة النساء .

الثاني : كسبي، وذلك لأن الرجل - كما سبق بيانه - هو القائم بالإعفاق على الزوجة والأسرة، فكانت الرئاسة له، لقوله تعالى : (وبما أنفقوا من أموالهم)

تلك هي الأسباب التي أوجب الشرع من أجلها طاعة المرأة لزوجها، فعليها أن تحفظ له ماله وتصور له عرضه ولا تمنع نفسها إذا طلبها، وأن تقوم على مشورته بما يدخل في دائرة بيتها.

وقد أفاضت السنة المطهرة في بيان الحقوق التي تجب على الزوجة والزوج بما يجعل الحياة الزوجية تفضل بالسعادة والهناء .

٢ - حكم تعدد الزوجات

إن الإسلام بزغ نوره في العالمين وقد استبدت بالناس شهواتهم الكثيرة، ومن هذه الشهوات ما يدفع إلى الانحراف في إشباع غريزته، ويجعله يتطلع إلى أكثر من امرأة، وكان الناس فيما مضى يسرفون في ذلك الأمر بلا حساب فوضع الإسلام لذلك حدوداً، وحد من تلك الشهوات العارمة ووقف منه موقف الطبيب يعطى من الدواء بقدر ما يزيل الداء، فأباح تعدد الزوجات وشرط أن لا يزيد الرجل عن أربع، وأن يعدل بينهما، ولم يكتف بذلك بل جعل مجرد الخوف من عدم القيام بالعدل بين الزوجات مانعاً من التعدد قال تعالى : (فإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع • وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت

كما شرط القدرة على الإنفاق عليهم وإعفافهم في إباحة التعدد ، وقد راعى الإسلام اعتبارات عديدة من أجلها أباح تعدد الزوجات وهي :

أولاً : اعترافه بالطبيعة البشرية ، فقد يميل الرجل إلى امرأة أخرى غير زوجته ولا يجد من نفسه القوة لدفع هذا الميل ، ولو طلق الأولى للاحقه ضرر كبير بعد أن تشابكت مصالحهما ، وأيضاً قد تفضل الأولى الشريكة في زوجها عن الحرمان الكلي .

ثانياً : قد تصاب المرأة بمرض يمنعها من القيام بأعباء الزوجية ، وقد تكون عقيماً لا تلد ، وطلب النسل من أهم ما يقتضيه الرجال والنساء ، وقد يكون في الزوجة الأولى من الوفاء ما يحمل زوجها على الحفاظ عليها ، وفي نفس الوقت يجد رغبته الملحة في طلب الولد وقضاء الوتر ، فلم يسمح الإسلام التعدد لكان في ذلك ضرر وأي ضرر له ، وكان فيه أيضاً تضيق للمرأة إذا استجاب الرجل لرغباته وطلقها وخصرماً أن أمرها قد انكشف وما فيها من عيب قد ظهر بما يهرف الناس عن زواجها .

ثالثاً : قد تصاب الأمة بحروب تحصد فيها الرجال حصداً وتأيم النساء ، فأراد الإسلام أن يفتح لهؤلاء الأيامي باباً يحصلن منه الحلال ، ويمنعن من الوقوع في الحرام ، وفرق كبير بين الحياة الزوجية الشريفة ، وبين المخادنة أو مغالبة النفس على الكره والألم ، ففي المخادنة إهدار لكرامتهما ، وفي الثانية إعانت للنفس وخرج لها ، والله يقول : (ما جعل الله عليكم في الدين من حرج) سورة الحج .

لهذه الأسباب وغيرها أباح الإسلام تعدد الزوجات وهو مفخرة من مفاخره ، لأن فيه توسعاً لدائرة الحلال وغلقاً لأبواب الفتنة والفساد .

والحق أن المعارضة لهذا المبدأ ظهرت يوم أن تهاون الناس في أمر دينهم
وقلدوا الغرب في سفاحه . وقد أثبت الأيام صواب ما عناه الإسلام .
ففي ألمانيا حين أكلت الحرب الرجال وتأيت النساء وأصبحن في حاجة إلى
راعي يدبر شئونهن طالبين بتعدد الزوجات ، وقد قرأت في سنة ١٩٥٠ م عرض
الألمانيات أنفسهن للزواج من أي رجل في العالم بشرط أن يقتل معهن ليعيش
في وطنهن على أن يدبرن له العمل اللازم لإزواجه وحاجاته .

هذا ما حدث في ألمانيا ، ولكن تعالوا معي هنا في مصر الإسلامية تروا
عجبا عجبا ، فقد أثار المبطلون شبهاً على الإسلام وعلى نظامه في تعدد الزوجات
وهو إن دل على شيء فإنما يدل على الحقد والكيد للإسلام ومبادئه ، فقالوا :
إن التعدد في الإسلام كلا تعدد ، فإباحته نظرية ، لأن الإسلام بناء على محال
حيث جعله معلقاً على العدل ، وقد أخبر الله بأن العدل بينهما غير ممكن ولا
مستطاع ، وعلى هذا فتعلق التعدد على غير الممكن يجعله غير مباح .

والواقع أنهم أخطأوا في فهم العدل المطلوب الذي شرط الله التعدد به ،
كما أخطأوا في فهم الآية الكريمة التي أخبرت بأن العدل غير مستطاع .

والحق أن العدل الذي عناه الله تعالى في قوله : (وإن خفتم أن لا تعدلوا
فواحدة) مراد به العدل في النفقة والكسوة والمبيت والقسم ، وهذه أمور
ميسرة في قدرة البشر أن يأتوا بها ، أما قوله تعالى : (وإن تستطيعوا أن
تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) ، فالمراد بالعدل في هذه الآية العدل القلبي ،
بدليل قوله : (فلا تملوا كل الميل) . وهذا شيء خارج عن قدرة الإنسان ،
لأن القلوب بيد الرحمن يقبلها كيف يشاء .

وهذا رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إن هذا قسمي فيما أملك فلا
تؤاخذني فيما تملك ولا أملك » .

وإن كل ما يوجب الشرع على الرجل أن لا يميل مع حبه في منحرف عن جادة العدل الواجب عليه من النسوية في النفقة والقسم والإهتمام بأولاد من يجب دون أولاد الأخرى .

٤ - حقوق الآباء على الأبناء

إن حقوق الآباء على الأبناء كثيرة لا يمكن حصرها ولكن يمكن تلخيصها في طاعتهم وبرهم وخفض الجناح لهم والبعد عن حقوقهم أو مخالفة أوامرهم مادامت لا تدعو إلى معصية الله تعالى ، والكلام في تفصيل هذه الحقوق يطول بنا فتجوز منه ما يقتضيه المقام .

أولاً : فضل الأبوين كما صوره القرآن :

إن فضل الأبوين على الأبناء خاصة يذكرها القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، ففي أكثر من موضع يدعو الله تعالى الناس إلى عبادته ويقرن ذلك بالإحسان إلى الوالدين فيقول : (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً) سورة البقرة ، ويقول تعالى : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً) سورة النساء .

وقد جعل الله تعالى طاعته وعبادته والإحسان إلى الوالدين أمرين مقضيين فأكدوا لما يجب على الإنسان من طاعة لربه وإحسان لوالديه . فقال : (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) سورة الإسراء .

ثانياً : أوصى الله الأبناء بالآباء خيراً مهما فعلوا ، وقد نبه إلى هذا الحق تبارك وتعالى في مرحلة يكون الآباء فيها أحوج ما يكونون إلى اللطف

والمعاونة ، كما أسرنا أن فلين لهم القول وأن نغدق عليهم الخير ، وأن نحفظ لهم العهد فنكرهمهم في الدنيا ماداموا أحياءاً ونذكرهم بالرحمة والدعاء الجميل والعمل الصالح بعد الممات .

ولم يكن هذا الحق على الأبناء الآباء إعتناء وإكراماً وإنما كان ذلك لما بذلوه من جهد في تربية الأبناء عندهم ولدوا والحذب عليهم وهم كبار . ولا نفى دور الأم فهي التي حملته جنيناً وولده طفلاً . وأرضعته يافعا وسهرت على القيام بشئونه حتى شب وترعرع . قال تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه الإقبال بشئونه حتى شب وترعرع . قال تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير) سورة لقمان . وقال تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرها ووضعته كرهاً . . الآية) سورة الأحقاف .

لذلك نرى القرآن الكريم أمر بطاعة الوالدين في كل ما يأمران به مما ليس فيه معصية لله تعالى بغض النظر عن عقيدتهما . قال تعالى : (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً) ولم يقف القرآن عند حد البر بالوالدين وعدم إيذاؤهما بل أمر الأبناء بمصاحبة الآباء والآباء والبر بهم ولو كانوا كفاراً ، فكيف بطاعة الأب الممسلم الذي يأمر بالبر بالله وتقوى الله ؟

حقوق الأبناء على الآباء :

أما حقوق الأبناء على آباءهم فهي كثيرة استفاضت السنة المطهرة ببيانها ولست هنا في مجال سردها وسنأخصها فيما يلي :
أنه يجب على الأب إحسان تربية أولاده فيطبعهم على الخلق النافع والبر والعلم المفيد ، كما يجب عليه أن يختار له إسماً لا يجعله أضحوكة بين أقرانه وأن يختار له

أما كريمة لا تلحق به العار . كما يجب عليه أن يعلمه السباحة والرمية ووسائل
كسب العيش الكريم التي تضمنه على تحمل أعباء الحياة إلى غير ذلك من
الحقوق الكثيرة .

٥ - علاج القرآن لمشاكل الأسرة

حرص القرآن الكريم على سلامة الأسرة وتجنيد العواصف الهوجاء ،
فدعا كل أفراد الأسرة إلى التراحم والتواد ، وقد سمعت أنفاً ما سجله القرآن
من وصايا في شأن الوالدين ، وسوف نتناول هنا علاج ما قد ينشأ بين
الزوجين من خلاف . وقبل أن نعالج هذه المشاكل التي طالتها القرآن الكريم
نحب أن نلفت الأنظار إلى أن الله أمر الأزواج أن يعاشروا أزواجهم
بالمعروف وألا يحكموا الغضب الطاريء في حياتهم الزوجية ، فقد يكره الإنسان
أمراً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً . قال تعالى : (وعاشروهن بالمعروف فإن
كرهتموهن فمسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) سورة النساء .

والمشاكل التي تحدث بين الزوجين إما أن تكون من قبل أحدهما أو من
قبلهما معاً ، وقد وضع القرآن لحل مشكلة حلماً فأوجد لها العلاج الإيجابي
الذي يحسم الأمرة من النهدم والانهيار ، فإذا استفحل الأمر عالجها بعلاج
يراعى فيه أن يكون الإبقاء على الأسرة هو الغاية المثل ما دام يوجد إلى ذلك
مسلك يمكن سلوكه .

أما علاج القرآن للمشاكل التي تحدث من قبل الزوجة ، فقد شرعه الله
على مراتب :

أولاًها : الوعظ باللين وصبر الزوج وتحمله أذاها إن كان الأمر يعالج
بهذا الوعظ والحلم وربما أجدى اللين ما لم يجد العنف .

وثانية هذه المراتب : هجر سلبى لا عنف فيه ولا عنك فيه إشعار لها بحريتها ونشوزها وتعالها على الزوج . فإن أجدى معها هذا العلاج فلا يلجأ الزوج إلى التأديب بطريق العقوبة ، وإلا فقد شرع الله له معاقبتها بالشدة والتفريع والضرب غير المبرح حتى تمتثل فبسلبه للشرع هذه للرتبة الثالثة ولا يحمل له سبيلا عليها . فإن لم يجد كل ذلك العلاج المباشر جعل الشارع في مجلس الأسرة ومؤتمرها الخاص علاجاً قد يكون أقوم وهو التحكيم الذى يقوم به عقلاء الأسرتين . وهدفه الإبقاء على الحياة الزوجية ما وجد إلى ذلك سبيلا . يقول الله تعالى : (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى يخافون نشوزهن فعتظوهن وأهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليماً كبيراً) . وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكما من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً) .

أما المشا كل الشى تحدث من قبل الزوج ولا قبل للمرأة يدفعها بالطرق السلبية وبحرصها على مرضاته والنزول على رغبانه ، فقد شرع الله لها طريق التحكيم أولاً ، ثم اللجوء إلى القضاء الذى يحميها من عنته ويرده عن جوده والقضاء بها عادل رحيم ، وعلى الزوج المتعنت قاس شديد فإن لم يرتدع هذا الزوج المتعنت أصبحت المرأة فى ظل القانون سيده الموقف ، فهى التى تملك الإبقاء على هذه الحياة الزوجية إن شاءت أو فصرعها إن لم تستطع تحملها . والقضاء فى هذا ينصفها ويقف بجانبها ويعطيها حق التخلص من هذه الحياة الزوجية الجائرة . قال تعالى : (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو

إعراضاً فلا جناح عليهما أن يَصْلِحَا بينهما صلحاً والصلح خير وأحضرت
الأنفس الشح وأن تحسنوا وتنقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ، (وإن
يتفرقا يفتن الله كلا من سعتة وكان الله واسعاً حكماً) .

الطلاق في القرآن

شرع الله هذا النظام الدقيق للحياة الزوجية رغبة في الإبقاء عليها ما دام
فيها طريق يمكن سلوكه أو ضيق يمكن القضاء عليه أو تحمله أما إذا تحولت
الحياة الزوجية إلى غير ما أراد الله لها وصارت جحيماً بعد السعادة والنعيم
فلا مناص من إخراج الزوجين من هذا الجحيم ، لعل أن يكون لهما متسع في
حياة أخرى يجد كل منهما فيها من النعيم ما فقد في عشرة شريكه ، وذلك
بالطلاق الذي جعله أساساً في يد الرجل فلا يسلب منه إلا إذا انصرف في
سلوكه ، حينئذ يحوله عنه ليجمعه حقاً للزوجة التي يحترم الإسلام وأياها ويرعى
أنوثتها وضعفها ، ويقدر لها كرامتها وإنسانيتها ، وإذا فالطلاق ما شرع إلا
لإنقاذ مظلوم وحماية ضئيف .

وقد طالب الله من كل من الزوجين عدم استعمال هذا الحق مراعاة
لمصلحة مستقبله ، أو رعاية لطفل صغير ، وأمرنا أن نوازن بين ما سنفقد
بالطلاق من مصالح ومنافع تعود على الأمرة ، أو بعض أفرادها ، وبين
ما سيترتب على الطلاق من التخلص من مشاكل ومضار قائمة قد
يمكن احتمالها .

وقد يبدو لدى النظرة البسيطة أن الإسلام بذلك ظلم المرأة وحكم الرجل
فيها والحق غير ذلك ، فإن الرجل يحتاج إلى المرأة وهي كذلك إليه أحوج .

والمرأة بطبيعتها تجزع لأقل شيء. كما تفوح لأدنى شيء، وهي غالباً ما تحكم عواطفها في أمورها فلو أعطيناها حق الطلاق لخدمت بيدها عشرين لافته الأسباب، وقد يستمويها الشيطان فيزين لها أن فلاناً خير من زوجها إلى غير ذلك من الأسباب التي تؤدي إلى اضطراب الأفراد والأمة، وعدم الاستقرار بين الأسر، وبما يؤكد ما قلناه ما عليه حال النساء اليوم من فوضى وجموح في العاطفة وعدم تقدير للمسئولية.

وأيضاً فإن الإسلام حينما شرح الطلاق وضع له القيود والعقبات التي تحول دون إنفاده، وتجعله أمراً غير مرغوب فيه، فهو يلزم الزوج ألا يطلق زوجته في حال الحيض ولا في طهر لامسها فيه.

وهدف الإسلام من ذلك: إيجاد الفرص للرفاق بينهما، ورأب الصدع ومهدئة المشاعر.

فإذا طلق الزوج زوجته أوجب الله عليه ألا يخرجها من منزل الزوجية وأعطاه فرصة مراجعتها في أثناء عدتها في الطلقة الأولى والثانية بأبسط شيء بل أكثر من ذلك اعتبر الإسلام الزوجية قائمة بينهما أثناء العدة فهي ترثه وهو يرثها.

فإذا أصر الزوج على الطلاق وانقضت العدة لم يحل الشرع بينه وبين زوجته متى أراد، وكانت خالية من الأزواج إلا أن ذلك متوقف على عقد ومهر جديدين كما يتوقف على رضاها.

من كل ما سلف نجد أن القرآن حينما أباح الطلاق وضع له عقبات وحواجز تجعله لا يباح إلا على نادرة. كما جعل الله الطلاق مرتين لإبقاء على الحياة الزوجية، وإنقاذاً لها من وهدية الانحلال، وقد أشار الله إلى ذلك

بقوله تعالى : (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) .
سورة البقرة .

فإذا كانت الطالبة الثالثة حرم عليه أن يراجعها إلا بعد أن تتزوج من
غيره . قال تعالى : (فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره) .
سورة البقرة .

وهذا تشريع حكيم قصد الله به تأديب كل من الزوجين ، وإعطاء كل
منهما فرصة يجرب فيها نفسه مع شريك آخر ، فينكشف له السبب الذي
هدم حياته الأولى بهذه التجربة الجديدة ، فلعله يعود بعدها وقد انصرفت
نفسه ، ولعل الزوجة تكون قد أدركت ما فقدته من محاسن زوجها فتصفو
لها الحاجة بمد ما تخلصت من الشوائب التي كدرتها .

سابعاً : حروف المعجم التي افتتح بها بعض سور القرآن

اعلم أن الألفاظ التي يتهجى بها أسماء ، مسمياتها الحروف المبسوطة التي ركب منها الكلام ، فقولك : (دال) إسم يعنى به (ده) من أحد مثلاً إذا تهجيته ، وقد روعى في هذه التسمية لطيفة وهى : أن المسميات لما كانت ألفاظاً كأسمائها ، وهى حروف مفردة ، والأسمى عدد حروفها ثلاثة ، اتجهوا إلى أن يدلوا في التسمية على المسمى ، فلم يغفلوها ، وجعلوا المسمى صدر كل إسم منها .

والحرف ما دل على معنى في نفسه ، فالألف دلالة على أوسط حروف قال وقام ، كدلالة الفرس على الحيوان المعروف ، ويتصرف في الحرف بالإمالة والتفخيم والتعريف والتذكير والجمع والتصغير والوصف والإسناد والإضافة ، وجميع ما هو من خصائص الأسماء ، فهذه الحروف مسميات لأسمائها التي ينطق بها .

واقعد سأل الخليل يوماً أصحابه : ما تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في لك والباء التي في ضرب ؟ فقالوا : نقول باء كاف ، فقال : إنما جئتم بالإسم ولم تلفظوا بالحروف ، وأقول : كه به - وألحق هاء الـكت بالحرف لأنه متحرك .

واعلم - ثانياً - أنك إذا تأملت ما أورده الله عز وجل من هذه الحروف في أوائل سور القرآن : وجدت ما أربعة عشر حرفاً ، موزعة على تسع وعشرين سورة - أولها سورة البقرة وآخرها سورة ن والقلم - وهذه الحروف يحمد بها قولك « نصر حكيم قاطع له سر » ، وهى نصف حروف المعجم التسعة والعشرين ، مشتتة على نصف جنس الحروف .

فن المهموسة نصفها : الصاد والكاف والهاء والسين والحاء ، ومن
المجهودة نصفها : الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء
والنون ، ومن الشديدة نصفها : الألف والكاف والطاء والقاف ، ومن الرخوة
نصفها : اللام الميم والراء والصاد والهاء والسين والحاء والياء والنون ،
ومن المطبقة نصفها : الصاد والطاء ، ومن المنفتحة نصفها : الألف واللام
والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون ،
ومن المستعالية نصفها : القاف والصاد والطاء ، ومن المنخفضة نصفها : الألف
واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون ، ومن
حروف القلقة نصفها : القاف والطاء (١) .

(١) الحمس : جريان النفس عند النطق بالحروف اضعفه والجر وانحباس
جرى النفس عند النطق بالحرف لقوته ، وذلك من قوة الاعتماد على مخرجه .
والشدة : انحباس جرى الصوت عند النطق بالحرف لكمال قوة الاعتماد على المخرج
ويكمل هذا الانحباس عند إسكان الحرف . والرخاوة : جريان الصوت مع الحرف
لضعف الاعتماد على المخرج . والاستعلاء : ارتفاع اللسان عند النطق بالحرف
إلى الحنك الأعلى . والاستفان : انحطاط اللسان عند خروج الحرف من الحنك
إلى قاع الفم . والإطباق : تلاصق ما يحاذي اللسان من الحنك الأعلى على اللسان
عند التلفظ بالحرف . والانفتاح : تهافي طائفتي اللسان والحنك عن الأخرى .
حتى يخرج الريح عند النطق بالحرف والقلقة : صوت زائد يحدث في المخرج بعد
ضبط المخرج وحصول الحرف فيه بذلك الضبط ، وذلك الصوت الزائد يحدث
بفتح المخرج بتصويت . . ٥١

(عن نهاية القول المفيد في علم التجويد للشيخ محمد مكي نصر مراجعة الشيخ
علي الضباع) مصطفى الحلبي سنة ١٣٤٩ هـ .

(م ٦ - التفسير الموضوعي)

ثم إذا استقرت الكلم وتراكبها وأيت الحروف المتروكة من هذه
الأجناس مذكورة بالذكورة منها ، ومعظم الشيء وجله ينزل منزلة كنهه . فسبحان
من هذا كلامه .

المراد من هذه الحروف المقطعة :

وأما وجه وقوعها في أوائل السور والمعنى المراد منها : فقد اختلف
فيها المفسرون :

١ - فمنهم من قال علمها عند الله وهي مما استأثر الله بعلمه — وهو قول
الخلفاء الأربعة وابن مسعود رضي الله عنهم ورأى جماعة السلف رضوان
الله عليهم أجمعين ، ولعلمهم أرادوا أنها سر بين الله ورسوله لم يقصد منها
إفهام غيره عليه السلام ، لأنه يبعد الخطاب بما لا يفيد مطلقاً وهو عبث والعبث
مستحيل على الله تعالى — قال ابن عباس رضي الله عنهما : عجزت العلماء عن
إدراكها ، وعن الصديق رضي الله عنه قال : في كل كتاب سر وسر القرآن
أوائل السور ، وعن علي رضي الله عنه قال : إن لكل كتاب صفوة وصفوة
هذا الكتاب حروف التهجي . ومنهم من فسرهما — واختلف هؤلاء
في معناها .

٢ - فقال الشعبي : هي فواتح السور من أسماء الله تعالى ، وقال ابن
عباس : هي اسم الله الأعظم ، وعنه أيضاً : هو قسم أقسم الله به وهو من
أسمائه تعالى ، وعن عكرمة قال : ألم قسم : وهذا القول يرد عليه أنه لم ينقل
في أسماء الله الحسنى ، ولم يرد واحد من الأحرف المذكورة في أول السور
في الحديث الشريف الذي يروي الأسماء الحسنى ، كما أنه لم يرد في صفات
الله تعالى ، وما يروى عن الإمام علي كرم الله وجهه أنه كان يقول :
يا كبري ، يا حسيق ، فإن صح فليعلمه أراد ما منزلها ، ولا دلالة فيه . ثم

إن اعتبارها فيما لم يرد في نقل معتمد صحة ، على أن القرآن والكتاب والقلم مخلوق بها ، فيكون قد جمع بين قسمين على مقسم واحد ، وهم يكرهون ذلك ، قال الخليل في قول الله تعالى :

« والليل إذا يغشى » والنهار إذا تجلى » وما خلق الذكر والأنثى ، الواوان الآخرين ليستا بمنزلة الأولى ، ولكنهما الواوان اللتان تضمين الأسماء إلى الأسماء في قوائك : مررت بزيد وعمر ، والأولى بمنزلة الباء والثاء ، قال سيديويه : قلت للخليل : فلم لا تكون الآخرين بمنزلة الأولى ؟ فقال : إنما أقسم بهذه الأشياء على شيء ولو كان انقضى قسمه بالأول على شيء لجاز أن يستعمل كلاما آخر فيكون كقولك : بالله لا فعلان بالله لا خرجن اليوم ، ولا يقوى أن تقول : وحقق وحق زيد لا فعلان ، والواو الأخيرة واو قسم ، لا يجوز إلا مستكرها ... إلخ - اهـ الكشف .

٣ - وقيل كل حرف منها إشارة إلى اسم من أسماء الله تعالى ، أو صفة من صفاته ، عن ابن عباس قال : ألم أنا الله أعلم ، وقيل : الألف الآؤه واللام لطفه والميم مجده وملسكه ، وقيل : الألف من الله واللام من جبريل والميم من محمد ، أي أنزل الله الكتاب بواسطة جبريل على محمد عليهم الصلاة والسلام - وقد رد ذلك بأن هذه الكلمات لم تستعمل في اللغة للاختصار من كلمات أخرى معينة ، كقولهم : في البسملة والحيعة والحوقة وأما ما ورد من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة فإن في السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا ، ثم إن هذه الشواهد شاذة تحفظ ولا يقاس عليها - وما جاء في هذا المجال قول الشاعر :

قلنا قني لنا فقالت قاف لا تحسبني أنا نسينا الإيحاف

تعني وقفت .

وقول الآخر :

بالخير خيرات وإن شرافا ولا أريد الشر إلا أن تأ... .

يريد : وإن شراً فشر ، إلا أن تريد أو تشاء - فاكفي بالغناء والتناء .

وفي الحديث : « من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله » قال سفيان : هو أن يقول في اقتل (ا ق) .

ولكن كل هذا ظاهر من سياق الكلام ، وأيضاً لا يقاس عليه ، وهو تخصيص من تخصص . على أنه يمكن تأويل قول ابن عباس بأنه للتنبيه ، على أن هذه الأسماء مشاربها إلى المسميات التي هي منبع الأسماء ومبادئ الخطاب ، ألا ترى أنه جعل كل حرف مشارباً به إلى كلمة تبيان الأخرى ؟ وذلك يدل على ما قلنا : من أنه للتنبيه على المادة الأصلية التي تشكون منها الكلمات التي يكون بها الخطاب .

عن أبي العالية قال : (آلم) هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفاً ، دارت فيها الألسن كلها ، ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه ، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه وبلائه ، وليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام وآجالهم ، قال عيسى بن مريم عليه السلام وعجب : فقال أعجب أنهم ينطقون بأسمائه ويمشون في رزقه فكيف يكفرون به !! قالوا مفتاح اسم الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد ، والآلاف آلاء الله واللام لطف الله والميم مجد الله . . . إلخ اهـ . ابن كثير .

٤ - وقال بعضهم : هي أسماء للسور التي ابتدأت بها ، وعليه إجماع

أكثر. منهم الخليل وسيدويه ، قالوا : سميت بها إيداناً بأنها كلمات عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ ، فيكون إيمان إلى التحدى والإعجاز على سبيل الإيقاظ ، فلولاً أنه وحى من الله لما عجزوا عن معارضته اه أبو السعود .

ويستشهد لهذا الرأي بما ورد في الصحيحين عن أنى هزيمة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة (ألم) السجدة و (وهل أنى على الإنسان) وعن مجاهد قال : (ألم ، وحم ، والمص ، وص) فوائض افتتح الله بها القرآن ، وقال غيره : إنه اسم من أسماء السور فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن ، فإنه يبعد أن يكون (المص) اسماً للقرآن كله ، لأن المتبادر إلى فهم السامع عندما يسمع من يقول : قرأت (المص) إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا لمجموع القرآن .

وهذا إعادة إلى قول قتادة والكلبي والسدي : إنها أسماء للقرآن ، ولعل هذا الرأي يستدل به بأنك إذا نظرت في تلك السور تجد بعدها لفظ القرآن أو الكتاب أو ما يتعلق بهما ، وما لم يكن كذلك مثل (كهيعص) والعنكبوت : تجدتهما يذكر بعدهما شأن الكتاب أيضاً ، أو القرآن أو الوحي .. اه عن ابن كثير .

ويرد على هذا الرأي اعتراضات ثلاثة :

الأول : أن القرآن نزل بلغة العرب وهم يكرهون التسمية بأكثر من اسمين ، فلا يسمون بثلاثة أسماء فصاعداً .

الثاني : أنه يؤدي إلى اتحاد الإسم والمسمى ، ومعلوم أن الإسم غير المسمى .

الثالث : أنه يستلزم الدور ، لأن مقتضى كونه اسماً أن يكون متأخراً عن المسمى ، ومقتضى كون الاسم جزءاً من السورة أن يكون متقدماً ، لأن الجزء مقدم على الكل ، فقد صار متقدماً متأخراً وهو باطل .

والجواب عن الأول : سألنا أن التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً مستنكر عند العرب ، ولكن ذلك إذا ركبت وجعات إسماء واحداً ، كخضرموت وسيبويه وقاضيخان ، فأما إذا كانت منشودة نثر أسماء العدد فلا استنكار فيها ، لأنهم من باب التسمية بما حققه أن يحكى حكاية ، كما سموا تأبط شراً وشاب قرناها ، وكامموا بيت شعر ، وقد سوى سيبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر وبين التسمية بطائفة من أسماء حروف المدح ، وهذا يدل على صحة ذلك دلالة قاطعة . ثم إن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى .

والجواب عن الثاني : أنه ليس من باب اتحاد الاسم والمسمى ، لأن المسمى هو مجموع السورة ، والفاعضة هي الاسم وهو جزء السورة ، وغاية الأمر دخول الاسم في المسمى . ثم إن التسمية قسمية مؤلف ، وفرد وتسمية مجموع مجزئه ، وهذا غير ذاك حيث كان الاسم مؤلفاً والمسمى مفرداً .

والجواب عن الثالث : أن الاسم مقدم من حيث ذاته ، متأخر من حيث كونه اسماً على مسمى ، فنقول سورة البقرة ، فإذا أمضيتها قلت : قرأت سورة البقرة ؛ وهذا غير ذاك لأن الجهة منفكة وهي مختلفة .

وإنما كتبت في المصاحف على صور التسميات دون صور الأسماء ، لأنه أدل على كيفية التلفظ بها ، وهي أن يكون على نهج التهجى دون التركيب ، لأن فيه سلامة من التطويل لا سيما في الفوائج الخماسية ، فقد جرت العادة متى تهجيت ومتى قيل للكاتب : اكتب كذا وكذا أن يلفظ بالأسماء وتقع

الكتابة بالحروف أنفسها ، ثم إن شمة أمرها وإقامة الألسن لها وأن اللفظ بها شير متجهة وأن بعضها مفرد لا يخطر بالبال غير ما ورد عليه ، يأمن من وقوع اللبس فيها .

وقد انفقت المصاحف على وقوع أشياء خارجة عن علم الخط والهجاء والعروض . ولا يضر ذلك لاستقامة اللفظ وبقاء الحفظ ولما علم من أن خط المصحف توقيفي وأن اتباعه منه لا يخالف في الأولى ولا يصح . اهـ عن أبي السعود والكشاف بتصرف .

٥ - وقال بعضهم : هذه الحروف مسرودة على نمط التعميد ، وذلك كالإيقاظ وقرع الأسماء لمن تحدى بالقرآن وبغرافية نظمه ، تنذيراً لهم على أنه منتظم مما ينظمون منه كلامهم ، ومع هذا فقد عجزوا عن آخرهم وتساقت قدرتهم دونه ، ولم يأنوا بما يدانيه فضلاً عن المعارضة بما يساويه ، وهم المرزوقون في الافتتان في القصيد والرجز ، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبلغ الذي يز بلاغة كل ناطق ، إلا لأنه ليس بكلام البشر ، فهو كلام خالق القوى والقدرة .

ويقرب من هذا القول :

ما قاله ابن جرير : من أن البعض قال : إنه قد ابتدئ بها لتفتح لاستماعها أسماع المشركين ، إذ تواصوا بالإعراض عن القرآن ، حتى إذا استمعوا له فلا عليهم المؤلف منه - قال ابن كثير : وهو ضعيف لأنه لو كان كذلك لكان في جميع السور ولا يكون في البعض دون البعض ، غالبها ليس كذلك ، بل لو كان كذلك لا ينبغي الابتداء بها في أوائل الكلام معهم سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك ، ثم إن سورة البقرة وسورة آل عمران مدينتان ليستا خطاباً للمشركين .

٦ - وقيل : إنها كلمات زائدة ، للدلالة على انقطاع كلام واستئناف كلام آخر ، ورد عليه : بأن هذه الكلمات لم تعد مزية لهذه الدلالة ، وأنه يصح بغيرها كالبسملة ، لأن هذه الكلمات فوائدها للسور فتكون منها ، ولا معنى لجمعها زائدة . إذ يحكى ذلك بأنها ليست من السورة ، مع أنه قد نقل بما لا يقبل الجدل أنها آية من كل سورة ذكرت فيها أو جزء آية .

وبعد بعضها آية دون بعض مبنى على التروقيت ، فألم حيثما وقعت ، والمصر آية ، والمرو والرو في سورها الخمس ليست بآية ، وطسم آية في سورتيها ، وطه ووي آيتان ، وطس ليست بآية ، وحم آية في سورها ، وكهيمص آية ، وحم عسق آيتان ، وص وق ون لا تعد واحدة منها آية . - هذا على رأى الكوفيين ، وأما من عداهم فلم يعدوا شيئاً منها آية . اهـ عن أبي السعود والكشاف .

٧ - وامل من قال : إنها أسماء للحروف التي تهجى والتي يركب منها الكلام : رأى وجهه : أما كونها أسماء فلدخول ما هو مختص بالأسماء عليها من التمرير والتنكير والتصغير والتثنية والجمع وغير ذلك ، وما وقع من عبارات المتقدمين من التهريج بحرفيتها محمول على المسامحة ، روى عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف وإنما ألف حرف ولام حرف وميم حرف » رواه الترمذي وقال حسن صحيح - فإن هذا ليس مما نحن فيه ، فإن إطلاق الحرف على ما يقابل الاسم والفعل عرف جديد اخترعه أهل الصناعة ، إذا الحرف عند الأوائل ما يتركب منه الكلم من الحروف المبسوطة ، وربما يطلق على الكلمة تجزأ ، والمراد منه في الحديث

اللفظ الحقيقي ليقين بذلك أن الحسنة الموعودة ليست بعدد الكلمات القرآنية بل بعدد حروفها المكتوبة في المصاحف .

وأما كون مسماها الحروف المجانية التي يركب منها الكلام : فإن هذا يدل على الإعجاز من جهتين :

الأولى : ما سبق من أنه إيقاظ وتجد بالقرآن ، وتنبيه على أنه منظوم مما ينظمون منه كلامهم ، ومع ذلك فقد عجزوا عن الإتيان بمثله ، وهم أساطين الفصاحة والبلاغة فدل هذا على أنه كلام غالى القوى والقدر .

الثانية : أن السورة حينما ترد مصدرة بذلك يكون أول ما يقرع الأسماع مستقلاً بشروع من الغرابة ، وأنموذجاً لما فى الباقي من فنون الإعجاز ، فإن النطق بالحروف أنفسهم ابتداءً له الخاص والعام والمكتاني والآمى ، بخلاف النطق بأسماء الحروف ، فإنه مختص بمن قرأ وكتب وخاطب أهل القلم والكتاب وهو مستغرب من الآمى الذى لم يجالس الكتاب ، كما قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذن لا يردك للبطالون) فكان حكم النطق بذلك مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله ، وبخاصة إذا فكروا فى الأقسام المذكورة فى القرآن التي لم تسكن قريش أو غيرها تعلم شيئاً منها ، حكم من حكم بعقله وقلبه وفكره أن ذلك حاصل له من جهة الوحى ، وأنه نبي الله حقاً ، ليس متقولاً ولا كاذباً ، ناعميك بما جاء عليه من أسلوب بليغ على غلط عجيب ، يدل على أن ذلك لا يكون إلا بتعليم من الله العلى القدير .

وجاءت مفرقة على سور القرآن لأن إعادة التنبيه وتحديد في غير موضع

واحد أدعى إلى الوصول إلى المطلوب وأكثر إقراراً له في الأسماع والقلوب .
 من أن يجمع كله في موضع واحد ، وكذلك كل تكرير جاء في القرآن
 فالمطلوب منه تمكين المذكر في النفوس وتقريره ، زيادة على الافتنان في
 إيراد بعضها فرادى وبعضها ثنائية إلى خماسية ، على عادة افتنانهم في الأسلوب
 وتصرفهم في أوجه الكلام البليغ ، فلما كانت أبنية كلماتهم على حرف
 وحرفين إلى خمسة تلك بهذه الفوائح هذا المسلك ، وله سبحانه الحكمة
 البالغة .

وأمل هذا الرأي أدرج الآراء وأقربها إلى التحقيق ، لا سيما أن القرآن
 الكريم هو معجزة الله الخالدة ، الدالة على صدق رسوله ﷺ ، أعجز
 الجن والإنس الذين نزل القرآن على لغتهم ، وكل ما يرشد إلى الإعجاز
 أخرى بالقبول .

ويقول ابن كثير في حاشية المطاف : « لا شك أن هذه الحروف لم
 ينزلها سبحانه عبثاً ولا سدى ، ومن قال من الجملة : إن في القرآن ما هو
 تعبد لا معنى له بالكلية ، فقد أخطأ خطأ كبيراً ، فتعين أن لها معنى في نفس
 الأس ، فإن صبح لنا فيها عن المحصوم ﷺ شيء قلنا به ، وإلا وقفنا حيث
 وقفنا وقلنا : (آمنا به كل من عند ربنا) ولم يجمع العلماء فيها على شيء
 معين ، وإنما اختلفوا ، فن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه ، وإلا
 فالوقف حتى يتبين ، والله أعلم .

حكمها في الوقف :

يوقف على جميعها وقف التمام إذا قدرت بحيث لا تحتاج إلى ما بعدها ، وكانت مستقلة المعنى ، وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور ، أو جعلت وحدها أخبار ابتداء محذوف ، أما إذا قدرت بحيث تحتاج إلى ما بعدها كأن تكون مبتدأ خبره ما بعده فلا يوقف عليها ويكون الكلام جملة واحدة .

عملها من الإعراب :

(أ) إن جعلت أسماء للسور أو القرآن كان لها محل من الإعراب ، وهو الرفع على الابتداء خبره محذوف أو ما بعده من السورة ، أو الخبرية لا ابتداء محذوف أو النصب بفعل مضمّر كاذكر أو اقرأ والفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية ، أو بفعل القسم المقدر على طريقة الله لأفعلن على حذف حرف الجر وإعمال فعل القسم — أو الجر بتقدير الحرف حسبما يقتضيه المقام مثل تفكر في ألم .

(ب) ولو جعلتها أسماء لله تعالى فتجرى فيها الوجوه المذكورة ما عدا أن تكون مبتدأ خبره ما بعده من أي السور ، لأن الموافقة بين المبتدأ والخبر لا توجد حالئذ .

(ج) ولو جعلتها أسماء مسمياتها الحروف الهجائية ، فإن جعلتها منشورة نثر أسماء الأعداد فلا حظ لها من الإعراب لفقد مقتضيه ، أما إذا نظرنا إلى ما قصد منها على هذا الوجه ، وقدرت لها العوامل ، تكون معربة .

كأن تقول مثلاً : المتعدي به مؤلف من هذه الحروف ، أو المؤلف من هذه الحروف متعدي به — وسواء قدرتها مرفوعة أو منصوبة أو مجزوعة ، تكون الآية بعدها خبراً لمبتدأ محذوف ، ويكون الكلام من جملتين .

(د) ولو جمعتها أبعاد كلمات أو حروفاً للتنبيه وللدلالة على انقطاع كلام واستئناف آخر ، فلا حظ لها من الإعراب .

(هـ) وكذلك لا حظ لها من الإعراب إذا جمعت سرّاً بين الله ورسوله أو سرّاً استأثر الله بعلمه ، لأن الإعراب فرع المعنى .

ثامناً : إستخلاف آدم وتعاينه الأسماء

سنتناول هذا الموضوع — بإذن الله تعالى — من نواحي ثلاث :

١ — إirاده في القرآن .

٢ — قصة الإستخلاف .

٣ — الغرض من وراء إirادها .

١ — ورود القصة في القرآن :

وردت في موضع واحد من القرآن الكريم ، وهو في سورة البقرة ، من الآية رقم (٣٠) إلى الآية (٣٤) :

قال الله تعالى ، وإذا قال ربك الملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون • وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين • قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم • قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون • وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين • .

فهذا هو الموضع الذي تعرض لذكر خلافة آدم ، وما عداه من الأماكن الأخرى في القرآن الكريم فيذكر فيها بدء خاقه أو إسجاد الله الملائكة له

وعصيان إبليس لأمر الله تعالى . . إلى غير ذلك مما يذكر في قصة آدم عليه السلام .

قصة الإستخلاف :

تسكبت الآيات بطريق التصريح عن أن الله سبحانه يخبر عن امتنانه على نبي آدم بتنويجه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم ، وأنه تكلم مع ملائكته بأنه سيجعل في الأرض خليفة ، يخلف الله في عمارة هذه الأرض ، وذلك هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله وتبليغه شريعة الله وتنفيذ مضمونها بينهم والحكم بين الناس بالعدل ، وتبيين ما أمر الله به ونهى عنه ، ليثاب المطيع ويماقب العاصي ، فالخليفة بهذا هو الذي ينشر العدل بين ربوع الأرض ، وأما الإفساد فيها وإراقة دماء الأدميين بغير حق فمن غير خلفائه .

ويمكن أن يرد خلافة آدم لمن سبقه من مخلوقات أخرى وجدت على سطح الأرض ، ثم ملكك بعد أن عصت الله وخرجت عن طاعته ، ولفظ خليفة ، يوحى بهذا لأنه يدل على أنه خلف من سبقه من تلك العوالم ، كما أن قياس الملائكة أمر الخليفة بمن سبقه من عاث في الأرض الفساد يدل على هذا ، فقد قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ، كما أن قوله تعالى : « إن يها يذهبكم ويأت بخلق جديد » ، يعطى أن هؤلاء فسقوا عن أمر ربهم فأبى الله بآدم خليفة لهم ، وهو قادر على إذهاب ذريته والإتيان بخلفاء لهم .

روى ابن جرير عن ابن عباس أن أول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضاً ، فبعث الله إليهم إبليس فقتلهم بجنوده ، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ، ثم خلق آدم فأمكنه

إياها ، وكان إبليس قيل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه (عزازيل)
وكان من سكان الأرض وكان من أشد الملائكة إجتهداً وأكثرهم علماً ، فدعاه
ذلك إلى الكبر .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس : أن من الملائكة قبيلة يقال لهم الجن ،
وكان إبليس منهم ، وكان يسوس ما بين السماء والأرض فعصى الله ، فسخره
شيطانياً رجيماً ، وعن الحسن : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ،
وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنسان . وهذا إسناد صحيح عن الحسن ،
ولعله هو الأصح ، فإن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون
ما يؤمرون ، والملائكة خلقوا من نور وإبليس خلق من النار .

والقول الأول في معنى الخلافة هو الأقوى ، وإن كان الثاني أقرب الأدلة
إلا أنها محتملة وليست قاطعة ، وآية الإستخلاف نفسها ليس فيها تصريح بهذا ،
ثم إن هناك إعتبارات أخرى تقوى أن الإستخلاف معناه خلافة الله في إقامة
العدل بين الناس والإمتثال لأوامره والإنتهاء عما نهى عنه ، فكل نبي من
الأنبياء كان خليفة الله في أرضه ، وليس آدم وحده ، قال تعالى : يا داود إنا
جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، فهو خليفة الله ينفذ أحكامه
في عباد الله الذين بهت إليهم ، إذ البشر في طبيعتهم لا يقومون بأمر الله إلا
إذا كان هناك من يوضح لهم الطريق المستقيم للوصول إلى الله رب العالمين ،
فهم رسل الله لهداية البشر إليه ، حتى يتحقق المعنى الذي من أجله كانت
الخلافة .

وهكذا البشرية جمعاء جعلها الله بحيث يخلف بعضها بعضاً لهذا الغرض ،
ولعل هذا المعنى هو الذي قرره ابن كثير حيث قال في قوله تعالى : « إني
جاءل في الأرض خليفة » أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن

وجيلا بعد جيل ، كما قال تعالى : « هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض » ، وقال : « ويجعلكم خلفاء الأرض » : وقال : « ولونشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون » .

والقصة كما ذكرها المفسرون :

إن الله تعالى لما أخبر الملائكة بجهله خليفة فى الأرض قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، وقد علمت الملائكة أنه لا شئ أكره عند الله تعالى من سفك الدماء والفساد فى الأرض ، وإذا كان الخلق سيعصونه فيما يأمر به وينهى عنه إذا فهم أولى منه لأنهم يسبحون الله ويقصدونه ويعبدونه حق عبادته « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » .

فأنه سبحانه وتعالى غنى عن مشاورة خلقه ، وإنما أخبرهم بذلك ليسألوا ذلك السؤال ، ويحاجبوا بطلب الإجابة ، ويعرفوا الحكمة من خالق آدم وذريته أو ليعلمهم المشورة وأنهم يستشيرون الحكيم والكبير منهم فى أمورهم ، وهو سبحانه غنى عن مشاورة خلقه ، فمشاورته تتول إلى معنى الإخبار .

وسؤال الملائكة : ذاك ليس على وجه الاعتراض على الله تعالى ، ولا على وجه الحسد لبني آدم — كما قد يتوهمه بعض المفسرين — وقد وصفهم سبحانه بقوله :

« بل عباد مكرمون » لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » ويقول : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك ، يقولون :

يا ربنا ما هي الحكمة التي من أجلها خلقت البشر ، مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء ؟ فإن كان المراد عبادتك فمن نحن نسبح بحمدك ونقدس لك والحال أننا نبعثك عن السوء ، ونقوم بفروض الطاعة والعبادة ، ونسبح بحمدك ونظمرك من الدنس والشرك ، كما ينبغي للجلال وجهك ، وعظيم سلطانتك ، ولا يصدر منا شيء مما يفعله بنو آدم من المعاصي ، فهلا اقتصررت يا ربنا علينا ؟

فكان جوابه سبحانه على سؤالهم : (إني أعلم ما لا تعلمون) إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف من عبادي ، على المفاسد التي ذكرتوها ما لا تعلمون ، فأعلم كثيراً مما غاب عنكم حتى المكتوب في اللوح المحفوظ ، فورا ذلك كثير من علوم الغيب ، لا يمكن للمخلوقين أن يحيطوا بها ، وقد استأثر سبحانه بعلمها ، ولا يطلع عليها إلا من ارتضى من عباده إذا شاء .

وقد أقام سبحانه لهم الحجة في صورة دليل واحد ، به يدركون معه الحكمة في خلق آدم ، وجعله خليفة في الأرض ، وأنه أحق بها من غيره ، فقد جعل سبحانه من ذريته الأنبياء والرسل وأوجد فيهم الصديقين والشهداء والصالحين والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملين والخاصة والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسالته صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد ثبت في الصحيح أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده يسألهم - وهو أعلم - كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون يا ربنا أتيناكم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون ، وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر ، فيمكث هؤلاء ويصعد هؤلاء بالأعمال ، وجاء الحديث

قول الرسول ﷺ : « يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل »
فقولهم : « وهم يصلون » في حالتى الإتيان والترك ، من تفسير قوله تعالى
(إني أعلم ما لا تعملون) .

وهنا سؤال : من أين علمت الملائكة أن هؤلاء الخلق سيفسدون في
الأرض ويسفكون دماءهم ؟ وللعلماء في هذا عدة أجوبة :

١ - أنهم علموا ذلك بعلم خاص من الله تعالى ، سواء كان هذا العلم عن
طريق اطلاعهم على اللوح المحفوظ أو غيره ، ولم يبين القرآن طريق هذا العلم
جرباً على عادته من الاختصاص إذا لم يستدع الأمر التفصيل .

٢ - أو بما فهموه من طبيعة البشر ، حيث خلق آدم من طين ، فقد روى
السدى عن ابن عباس أن ملائكة الموت أخذ بأمر الله من وجه الأرض وخلط
ولم يأخذ من مكان واحد ، ثم خلقه الله بيده من طين لازب يلتصق بعضه
ببعض ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته . فقد فهمت الملائكة
من كونه خلق من أجزاء الأرض ، وهى مختلطة التراكيب والعناصر والأجزاء
والمعادن ، وهى إذا اجتمعت تفاعلت ، ونتج عنها معرفة عدم اجتماع الطبائع
فلذا توقعوا حصول الفساد والمعاصى ، وسفك الدماء ، والمشاحنات من
سيفلق من هذه المادة .

٣ - أو بما فهموه من لفظ « خليفة » ، وأنه سيعمل الله تعالى فى إقامة
العدل بين الناس ، وتنفيذ أوامره ونواهيه ، والفصل بينهم فيما يقع من
مظالم وخسومات ، وردعهم عن المحارم والمآثم ، وهذا يستدعى وجود
ظالم ومظلوم ، ومحكوم له ومحكوم عليه ، فيحتاجون حينئذ لنصب خليفة
ليفصل بينهم بالحق .

٤ - أو أنهم قاسوهم على من سبق ، فقد روى ابن جرير عن ابن عباس
رضي الله عنهما - أن أول من سكن الأرض الجن ، فأفسدوا فيها وسفكوا
فيها الدماء وقتل بعضهم بعضاً فبعث الله إليهم إبليس فقتلهم إبليس ومن معه ،
حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال .

فقال الملائكة تلك المقالة ، حينما أخبرهم الله أنه سيجعل في الأرض
خليفة ، فقاموا هؤلاء بأولئك .

ولعل أوفق هذه الآراء وأولاها بالقبول هو الأول وبليه الثاني .

ثم تذكر الآيات مقاماً آخر : ذكر الله فيه شرف آدم على الملائكة ، بما
اختصه الله به من علم أسماء كل شيء ، دونهم ، وكان ذلك بعد سجودهم له وبلاحظ
أن القرآن يقدم ماحقه التقديم لأهليته بالنسبة لما يؤخر عنه ، وهذا إشارة إلى
شرف العلم ومنزلة الرفيعة وأنه يرفع صاحبه إلى مقام دونه أى مقام آخر ،
ثم إن مقام العلم مناسب تمام المناسبة لعدم علم الملائكة الحكمة من خلق الخليفة
فأخبرهم سبحانه بأنه يعلم ما لا يعلمون .

وقد علمه الله تعالى أسماء الأشياء كلها : أولاده إنساناً إنساناً ، والدواب
على اختلافها وأسمائها ، والسماء والأرض ، والسهل والجبل والبحر وكذلك
أسماء الملائكة وأشياء ذلك من الأمم وغيرها . قال الحسن وقتادة : علمه اسم
كل شيء وجعل يسمى كل شيء باسمه وعرضت عليه أمة أمة - وهذا هو رأى
الصحيح - كما قال ابن كثير - فقد علمه الله أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها
وأفعالها ، كما قال ابن عباس : حتى الفسوسة والفسية . يعنى أسماء الذوات
والأفعال المكبر والمصغر ، وقد جاء في البخارى في حديث الشفاعة أنه علمه
أسماء جميع المخلوقات .

ثم عرض سبحانه الخلق والمسميات على الملائكة . فقال : أخبروني عن أسماء هؤلاء إن كنتم صادقين أنى لم أستخلف إلا المقسدين في الأرض السفاكين للدماء ، وأنتم أولى بعمارتهما وتقديس الله فيها ، فإذا عجزتم عن معرفة كنه الموجود المشاهد فأنتم أشد عجزاً عن غير الموجود ، وأجمل لهم سبحانه المصالح في استخلافهم بقوله : (إني أعلم ما لا تعلمون) . ثم فصل لهم بعضها في قوله : (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) . . . الآيات ، فإنه لما ظهر فضل آدم على الملائكة في سرده أسماء الأشياء قال الله للملائكة :

(ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) ، وهذه الآية استحضار لقوله : (إني أعلم ما لا تعلمون) فإنه يعلم الظاهر والخفي ، فهذه كالشرح والبيان لتلك ، وقامل هذا التذييل : (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) الذي يدل على مبلغ علم الله تعالى المحيط بالكون المرئي وغير المرئي : وما لا يعلمه إلا رب العباد ، والملائكة على قربهم من ربهم وإطلاعهم على اللوح المحفوظ ، فإنهم لا يعلمون إلا الأشياء التي علمها لهم ربهم جل شأنه : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) .

ثم يذكر سبحانه مكرمة عظيمة من الله لأدم ، امتن بها على ذريته ، بجانب تلك المكرمتين : ذكره في الملأ الأعلى واستخلافه ، وتعليمه الأسماء كلها ، تلك هي إسجاد الملائكة له جميعاً .

وقد جاء ذلك في السنة منها حديث موسى : « رب أرني آدم الذي

أخرجنا ونفسه من الجنة ، فلما اجتمع به قال : أنت آدم الذى خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته . . . الحديث .

وقد كان ذلك بعد نفخ الروح فيه وقبل أن يختصه بالعلم ، وقد دخل إبليس فى خطابهم ، لأنه تشبه بهم وتوسم بأفعاله ، فلما أمروا بالسجود لآدم سجدت الملائكة إلا إبليس أبى واستكبر ، لما كان حدث نفسه من الكبر والإغترار ، فقال لا أسجد له وأنا خير منه وأكبر سنأ وأقوى خالقاً خلقتنى من نار وخلقته من طين ، والنار أقوى من الطين ، فلما أبى إبليس أن يسجد أباسه الله وآيسه من الخير كله وجعله شيطاناً رجيماً عقوبة على معصيته ، وقد كان من أشد الملائكة إجتهداً وأكثرهم علماً ، ومع ذلك فقد صار أمره إلى الكفر والعياذ بالله تعالى .

وهذا يدل على أن من أظهر الله على يديه خوارق العادات فلا يدل ذلك على ولايته ، ولا على أنه يوافق الله بالإيمان — بل لقد استدل بعضهم بهذه الآية على أن الخوارق قد تكون على يد الكافر والفاجر ، كما ثبت عن ابن صياد ، حين خبا له رسول الله ﷺ : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » فقال هو الدخ ، وبما ثبت فى الأحاديث عن الدجال أن الله يظهر على يديه الخوارق الكثيرة .

يبقى أن نقول : إن الله تعالى أسجد لآدم كل الملائكة بدون إستثناء أحد ، يدل على ذلك : (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس) ففيها أربعة أوجه مقوية للعموم : لفظ الملائكة والتأكيد بكل وأجمع وإستثناء الواحد من الجمع .

وقد كان هذا السجود تحية لآدم طاعة لأمر الله تعالى ، فالسجود لله

يكون عبادة ولغيره كرامة - وقد كان ذلك فيما سبق وقد سجد أبو يوسف وإخوته له ، واسكنه منسوخ عندنا . قال معاذ : قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلماهم ، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك ، فقال ﷺ : « لا ، لو كنت آمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظيم حقه عليها » .

الهدف والمعنى من استخلاف آدم :

إن استخلاف آدم عليه السلام في الأرض ، يدل على معنى سام من الحكمة الإلهية ، عز فهمها على الملائكة ، فلو استخلفت الملائكة لما عرف سر هذا الكون الهائل ؛ إذ هم ليسوا بحاجة إليه لأن طبيعتهم النورانية ، تخالف طبيعة الإنسان ووصفه ، فالإنسان يحكم حاجته وخلقته المادية ، يعرف خواص الأشياء والمركبات الكيميائية وفوائدها وكيف يستفيد منها في حياته العملية والعملية ، وكذلك يسخرها للاستفادة منها في طبيعته النفسية ، وفي كل ما يمكن أن يلائم حياته على اختلاف الأزمنة ، والامكنة .

فالإنسان من أعجب خلق الله ، حيث أعطاه من العلوم والمعارف ما يمكن أن يسخر بها سائر المخلوقات ، ويطورها لتطبيقاته النفسية والجسدية ، بما يكفل له سعادة الدنيا ، ويعينه على أداء حق الله وحق عباده ، الأمر الذي يوصله إلى سعادة الآخرة كذلك .

وقد ضرب الله لنا المثل بتعريف آدم الأسماء كلها ، فبذلك فضل على الملائكة : فالعلم مرتبة عليا ، وغاية سامية : (ولقد كرّمنا بني آدم

وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلاً .

وعدل الله تعالى ورحمته وفضله وعقوبته وعفوه وقدرته وحكمته وإرادته مظاهر تتجلى كلها في خلق الإنسان ، فلو لا الإنسان الذي تتحقق فيه هذه المظاهر ، ما تحقق عدل الله ورحمته وعلمه وقدرته وطاعته وعصيانته وإحسانه وعقابه .. إلخ تلك المظاهر الإلهية التي يظهر أمرها على الإنسان ، خليفة الله في أرضه للحكم بين الناس بالعدل .

وإذا كان الله قد كرّم آدم وذريته بإسجاد الملائكة له وتعليمه الأسماء كلها ، فما ذاك إلا ليكون على مستوى المسؤولية والجزاء ، فمذه النعم العظيمة التي فضل بها الإنسان هو مسئول عنها والله يجازيه عليها ، إن أحسن فله جزاء الحسن ، وإن أساء فعليه وبالها ، يقول جل ذكره : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) . ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً .

قاصداً : تفسيرات الآيات المتعاقبة بالبعث

لقد تكلم القرآن الكريم عن البعث من عدة جهات هي :

- ١ - إثبات البعث وكونه من المعتقدات الواجب الإيمان بها .
- ٢ - منكر و البعث والرد على شبههم الباطلة .
- ٣ - إقامة الأدلة على إمكان البعث ووقوعه .
- ٤ - كونه وقع في الدنيا ، وهذا يشبه وقوعه في الآخرة .

والإليك تفصيل هذه الجهات :

١ - عقيدة البعث :

لقد حفلت الآيات القرآنية بإثبات البعث ، ورجاءات مؤيدة لكونه حقاً لا ريب فيه . قال سبحانه : (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) سورة طه .

وقال تعالى : (قال فيها نحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) .
صورة الأعراف .

وقال : (أحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه * بلى قادرين على أن نسوي بنانه) سورة القيامة .

وقال : (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) سورة
الروم .

أى في نظركم الإعادة أهون من الإبداء ، لأن من يفعل فعلاً أولاً ،

يصوب عليه ، ثم إذا فعل بعد ذلك مثله يكون أمهل عليه ، أو أن المراد : وهو حين عليه ، كقول القائل : انه أكبر - أى كبير - اه عن الفخر الرازي .

وقال جل شأنه : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم) إلى قوله : (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) سورة الحج .

وقد اشتملت هذه الآيات على خمس نتائج صحيحة ، استنتجت من عشر مقدمات صادقة :

(أ) فقوله : (ذلك بأن الله هو الحق) نتيجة مترتبة على ما ثبت بالتواتر أن الله تعالى أخبر بزلزلة الساعة ، وهو خبر مقطوع بصحته ، لأنه جاءنا عن طريق الصادق عليه السلام عن ربه عز وجل ، فهو حق ولا يخبر بالحق مما سيكون إلا الحق ، فأنه هو الحق .

(ب) وقوله : وأنه يحيي الموتى ، نتيجة عن خبر أهوال الساعة ، وحصول فائدة هذا الخبر متوقفة على إحياء الموتى أي شاهدوا تلك الأحوال ، وقد ثبت أنه قادر على كل شيء ، ومن الأشياء إحياء الموتى ، فهو يحيي الموتى .

(ج) وأنه على كل شيء قدير ، حيث أخبر أن من يتبع الشياطين ومن يجادل فيه بغير علم يذقه عذاب السعير ، ولا يقدر على ذلك إلا من هو على كل شيء قدير ، فهو على كل شيء قدير .

(د) وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، لأنه أخبر بالصدق أنه خالق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم من علقة . . . إلخ ، وضرب لذلك مثلا بالارض الهامدة ينزل عليها الماء فتنبث ، ومن خلق الإنسان كذلك ثم أماته

ثم يعيده بالبعث ، وأوجد الأرض بعد العدم وأحياناها بالخصب ، وصدق خبره في ذلك بدلالة الواقع ، صدق خبره في الإتيان بالساعة .

(هـ) ولا يأتي بالساعة إلا من يقدر على إحياء من في القبور للجزاء ، فهي آتية لا ريب فيها ، والله سبحانه يبعث من في القبور . اهـ . عن الإتيان بنصره .

ولقد صور القرآن الكريم البعث وأحواله ، وما سيكون فيه وما سيعقبه ، في سور كثيرة منها : سورة الحج وسورة القيامة وسورة التكاوير والانفطار ونحوها ، وبجانب ذلك اهتم بذكر أمارات البعث وعلاماته .

وعقيدة البعث اتفقت عليها الشرائع جميعاً ، وقد نزلت بها الكتب السماوية السابقة وأخبر بها الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فهو حق ثابت يجب الإيمان به معلوم من الدين بالضرورة ، ومنكره كافر قطعاً . هذا من ناحية النقل .

وهو ثابت أيضاً عقلاً ، فإن العقل لا يحيل وقوعه ، فإن هذه الحياة الدنيا فيها من يفعل الإحسان ولا يلقي جزاءه من المثوبة ، وفيها من يرتكب الإساءة ولا يلقي جزاءه من العقوبة ، ولا بد لتحقيق العدالة من أن يلقي كل منهما جزاء ما قدمت يداه ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وإلا لانقلب العدل ظالماً ، وذلك لا يصح في نظر العقل « أحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم تحكمون » سورة القلم (أم حسب الذين اجترأوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وهملوا بالصالحات سواء بحياهم ومماتهم سواء ما يحكمون) الجاثية .

٢ - منسكرو البعث والرد عليهم :

أنكر الكفار البعث ، وقالوا : إن الجسم مركب من مواد مجتمعة ، فإذا تفرقت تحال الجسم ولا يمكن إعادته مرة أخرى ، وكيف يعيد الله هذه الأجزاء بعد ما تفتت وصارت تراباً وعظاماً نخرة ؟ وكيف يجعلها خالقاً آخر ؟ وهم قد قاسوا الغائب على الشاهد ، وظنوا أنه إذا لم يكن في إمكانهم إعادة الحياة الميت فليس في مقدور الله تعالى أن يعيده مرة أخرى كذلك .

وكذبوا . فقد ذكر القرآن هذه الشبهة ورد عليها بالأدلة القاطعة لينتفع بها من شاء الله له الذفع والنجاة قال سبحانه : (وكانوا يقولون أئذْ مَتْنًا وكذا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون • أو آباءؤنا الأولون • قل إن الأولين والآخرين لمجموعون • إلى ميقات يوم معلوم) ثم يقول (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) . سورة الواقعة .

وقال سبحانه : (فقال الكافرون هذا شيء عجيب • أئذْ مَتْنًا وكذا تراباً ذلك رجع بعيد) إلى أن يقول (أفعيننا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد) سورة ق .

فهذه الآيات السكرية وغيرها تثبت بالدليل القاطع أن الإنسان له حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ، ينشأ الإنسان فيها خلقاً جديداً ، وإن قدرة الله سبحانه وتعالى أوسع بكثير مما قالوه ، لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، بل إن عقولهم نفسها مخلوقة على نمط واحد بديع ، حيث كانت فيها قوة الفكر والتدبر ، فهي تدل على قدرة الصانع سبحانه وتعالى :

وفي تفسير سورة يس عند قوله تعالى : (وضرب لنا مثلاً ونمى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم • قل يحيى الذي أنشأها أول مرة وهو

بكل خلق عليهم • الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون • أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) يقول الفخر الرازى : بدأ أولاً بإبطال استبعاد المنكرين للعشر بقوله (ونسئ خلقه) من أنا خلقناه من تراب ومن نقطة متشابهة الأجزاء ، ثم جعلنا لهم الأعضاء المختلفة الصور والقوام ، وأودعناهم النطق والعقل اللذين بهما استحقوا الإكرام ، فلم يستبعدوا إعادة النطق والعقل إلى محل كانا فيه ، مع خلق الناطق العاقل من نقطة لم تكن محل حياة أصلاً ؟ ثم استبعدوا المعاد للتفرق والتفتت ، دفع سبحانه هذا الاستبعاد من جهة ما فى المعاد من القدرة والعلم ، فقال (وضرب لنا مثلاً) أى جعل قدرتنا كقدرتهم (ونسئ خلقه) العجيب وبدأه الغريب .

وأما من استبعد الإعادة لأنه بعد العدم لم يبق الإنسان شيئاً ، فقد رد عليهم بقوله (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) فكما خلقه ولم يكن شيئاً مذكوراً ، كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكوراً .

وأما من تفرقت أجزاؤه فى مشارق الأرض ومغاربها وصار بعضها فى بدون السباع وبعضه فى بطون السمك ، أو أن إنساناً أكل آخر وصارت أجزاء المأكول فى أجزاء الآكل ، فإن أعيد فأجزاء المأكول إما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه ، وإما أن تعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء - فقد رد سبحانه على هذه الشبهة بقوله (وهو بكل خلق عليم) ذلك لأن فى الآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية ، وفى المأكول كذلك ، فإذا أكل إنسان إنساناً صار الأصلية من أجزاء المأكول فضلياً من أجزاء الآكل ، والأجزاء الأصلية للآكل هى ما كان له قبل الآكل ، والله يعلم الأصلية من الفضلية ، فيجمع الأجزاء الأصلية للآكل

وينفخ فيها روحه ، ويجمع الأجزاء الأصلية ، للمأكول وينفخ فيها روحه ، وكذلك الجميع يجمع أجزاءهم المنفردة في البقاع الممتدة ، بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة .

ثم عاد سبحانه إلى تقرير دفع استبعادهم وإبطال شبههم ، فقال : (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا) فإن الإنسان له جسم يحس به وروح تسرى فيه ، وهي كحرارة تجري فيه ، فإن استبعدتم وجود ذلك فيه فلا تستبعدوه فإن النار في الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب ، فأنه قادر على بعثكم بعد الموت ، وإن استبعدتم خلق جسمه ، فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه ، فإن الله تعالى خلق السموات والأرض ثم أشار إلى القدرة الكاملة والعلم الشامل المحيط بكل شيء بقوله (وهو الخلاق العليم) .

وأكد بيانه بقوله : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) حيث قالوا : لا يقدر أحد على مثل هذا قياساً للغائب على الشاهد ، فأظهر فساد تمثيلهم وتشبيههم ، فقال : في الشاهد يكون الخلق بالآلات البدنية والاتصالات المكانية ولا يقع إلا في الأزمنة الممتدة ، والله سبحانه يخلق بكلمة ، كن ، فيكون ، فكيف تضربون له المثل الأدنى ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض ؟ أه يتصرف .

٣ - الأدلة على إمكان البعث ووقوعه :

اتجه القرآن في سوق الأدلة على إمكان البعث ووقوعه بالجسم والروح معاً ، إلى عدة أفيسة بنيت بها هذه القضية . من هذه الأدلة .

(أ) قياس الإعادة على البدء :

قالذي خلق الخلق أول مرة قادر على أن يعيد خلقه أيضاً مرة أخرى ،
بل الإعادة أهون عليه من الخلق الأول : أفصينا بالخلق الأول) ، (كما بدأكم
تعودون) ، (كما بدأنا أول خلق نعيده) .

قال الفارابي : كنت أود وأشتهى أن يكون أرسطوطاليس حياً ، حتى
يسمع قول الحق جل وعلا وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال : (من يحيي
العظام وهي رميم • قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) .
الآيات من سورة يس .

وهذا قياس جلي واضح ، لا يحتاج إلى دليل يشبهه ، فهناك خلق قد أنشئ
من تراب لا حياة فيه ، قالذي يوجد الحياة من تراب وجدت فيه الحياة من
قبل ، ليس بأعجب من الإيجاد من تراب باديء بدء لا عهد له بالحياة .

وقال تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من
تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر
في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى) إلى أن قال : (وأن الساعة آتية لا ريب
فيها وأن الله يبعث من في القبور) الآيات من سورة الحج .

وقال تعالى : (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) . .
سورة الروم .

(ب) قياس الإعادة على إيجاد النار من الشجر الأخضر ، فإن إيجاد النار
في الشجر الأخضر الذي يقطر ماء ، يناسب الحياة التي تجري في الإنسان
والحرارة التي تسري في دمه وروحه والقادر على هذا هو (الذي جعل لكم
من الشجر الأخضر نارا فإذا أتم منه توقدون) .

(ج) قياس قدرته على الإعادة على قدرته على خلق السموات والأرض بطريق الأولى ، فإن خلق الإنسان بالنسبة لخلق السموات والأرض يسير في قدرة الله تعالى ، أليس خلق السموات والأرض مع عظمهما ودقيق صنعهما ، وتسييرهما بحكمة حكيمة وإمساكهما أن تزولا ، وجعل السماء كالقبة المضروبة على وجه الأرض مرفوعة بغير عمد ، والأرض ذلولا مستوية لا تميد بالناس ، أليس ذلك وغيره من أعظم الأدلة وأجلها على قدرته سبحانه على خلق الإنسان مرة أخرى ، وإعادته لحياة آتم وأكل ؟ إن خلقه ليسير بالنسبة لخلقهما ، فلم تستبعدون القدرة على الإعادة ؟

قال تعالى : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) سورة غافر . وقال : (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخالق العليم) سورة يس .

(د) قياس الإعادة بعد الموت باليقظة بعد النوم ، قالبحث ما هو إلا حياة جادت عقب موت جاء بعد الحياة الدنيا ، وكذلك الإنسان ينام ثم يستيقظ بعد النوم ، فالحياة شبيهة باليقظة والموت شبيهة بالنوم .

قال تعالى : (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقتضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) سورة الأنعام . وقال : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) سورة الزمر .

فإنه تعالى : يتوفى الأنفس عند الموت وعند النوم ، إلا أنه يمسك الأنفس التي قضى عليها الموت ويرسل النائمة إلى وقت ضربه لموتها ، فالأنفس التي

يتوفاها هي التي نامت وما ماتت عند منامها ، وأما التي قضى عليها الموت فيمسخها ولا يردّها إلى البدن ، والآنفس التي يتوفاها عند النوم يردّها إلى البدن حين اليقظة ، وتبقى إلى أجل مسمى وهو وقت الموت .

إن النفس في وقت الموت ينقطع تعلقها عن ظاهر البدن وباطنه ، وأما في وقت النوم فإنه ينقطع تعلقها به في ظاهره من بعض الوجوه ، ولا تنقطع عن باطن البدن ، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد ، إلا أن النوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه ، وهما يشتركان في كون كل منهما توفياً للنفس ، ثم يمتاز أحدهما عن الآخر بخواص معينة ، في صفات معينة ، ومثل هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم ، ولذلك ختمت الآية بقوله سبحانه : (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

(هـ) قياس الإعادة على الخلاف القائم في البحث بطريق قياس الخلاف : وذلك في قوله تعالى : وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً واسكنوا كثر الناس لا يعلمون • ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين (سورة النحل) .

ذلك لأن اختلاف الفريقين لا يوجب انقلاب الحق في ذاته ، وإن اختلفت الطرق الموصلة إليه ، وإذا كانت الحقيقة موجودة ولا سبيل إلى الوصول إليها ما دمتنا على حالتنا المفظورة على الجدل والمراء والاختلاف ، وكان لا يمكن ارتفاعه إلا بارتفاع تلك الفطرة ونقلها إلى صورة أخرى ، صح ضرورة أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ، فيها يرتفع الخلاف ، وهذه هي التي وعد الله بالمصير إليها ، وبذلك انقلب الخلاف وتحول إلى دليل على أن البحث حق وكائن - اهـ عن الإتيان بتصرف .

(و) قياس قدرته على الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها :

أنظر إلى الأرض الميتة عندما ترمى فيها البذر ، تراها وقد اهتزت
وخذت زخرفها وازينت ، وأخرجت الزرع البهيج ، والفواكه اللذيذة
وأشجار الرياحين والزهور الجميلة ، فمن جعل فيها مادة الحياة بعد الممات ،
قادر على أن يخلق من تراب الأرض بشراً سوياً حياً ، وإن اختلفت الحياة
وصورتها في كلا الجانبين ، فقد قاس سبحانه خلق الإنسان وإعادته مرة
أخرى ، على خلق النبات وإحيائه من الموات ، وفي ذلك عبرة لمن أراد
أن يتعظ ويتدبر .

قال تعالى : (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت
وأنتبت من كل زوج بهيج • ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على
كل شيء قدير • وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في
القبور) سورة الحج .

وقال تعالى : (والأرض مددناها وألقينا فيها روائى وأنبتنا فيها من كل
زوج بهيج • تبصرة وذكرى لكل عبد منيب • ونزلنا من السماء ماء مباركاً
فأنبتنا به جنات وحب الحصيد • والنخل باسقات لها طلع فزيد • رزقاً للعبياد
وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج) سورة ق .

وقال سبحانه : (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها
الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شيء قدير)
سورة فصلت .

أى من الدلائل الدالة على تفرد الله بالعبادة وتوحيده في صفاته العليا ،
حال الأرض حين خلوها عن المطر والنبات ، فإذا أنزلنا عليها الماء تحركت
(م ٨ التفسير الموضوعي)

بالنبات وانتفخت ليظهر منها النبات أول ظهور ، ثم تصدعت عنه ، إن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها ، فإن عود التأليف والتركيب إلى تلك الأجزاء المتفرقة ممكن لذاته ، وعود الحياة والعقل والقدرة إلى تلك الأجزاء بعد اجتماعها أيضا أمر ممكن لذاته ، والله تعالى قادر على الممكنات ، إذأ فهو قادر على إعادة التركيب والتأليف ، والحياة والقدرة والعقل والفهم ، إلى تلك الأجزاء .

وهذا يدل على سبيل الوضوح التام ، على أن حشر الأجساد ممكن لا امتناع فيه ولا استحالة ، والله على كل شيء قدير ، لا يمتنع عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

(ز) قياس الإعادة على ما وقع في الدنيا من إحياء بعض الموتى ، وهذا ما سنفصله في الجهة الرابعة - بإذن الله تعالى :

٤ - وقوع البعث في الدنيا يشبه وقوعه في الآخرة :

وقع البعث في الدنيا وهو ثابت فعلا ولا ينكره إلا معاند مكابر . . وقد ذكر القرآن وقوعه في الدنيا في سبعة مواضع .

(الموضع الأول) : في قوله تعالى (وإذا قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الساعة وأنتم تنظرون) ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون (سورة البقرة .

وفي تفسير الآيتين خلاف ، ولعل أولاها ما قاله ابن اسحاق وغيره : لعل موسى لما رجع إلى القوم وقد عبدوا المعجل ، حرقه وفراء في اليم ، واختار منهم سبعين رجلا من خيارهم ، وقال انطلقوا إلى الله وتوبوا بما صنعتم ، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه ، فسألوا موسى أن

فسمعهم ربنا كلامه ، فدنا موسى من الجبل ووقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ، وكان موسى إذا كلفه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد أن ينظر إليه ، ودنا القدم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعه وهو يقول ربهم ربهم ، حتى فرغ وانكشف عنه الغمام ، أقبل على القوم فطلبوا منه أن يرهم الله جهرة فأخذتهم الساعة فتأوا كلامهم ، وقام موسى رافعاً يديه إلى السماء ويدعو ربه : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، رب اخترت من بني إسرائيل سبعين رجلاً ليكونوا شهودي أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد ؟ فما الذي يصدقوني به ويؤمنوني عليه بعد هذا ؟ ولم يزل يناشد ربه حتى رد إليهم أرواحهم . وقال الربيع ابن أنس : كان موتهم عقوبة لهم ، فبحشوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم . وقال غيره : إن الله أحيائهم فقاموا وعاشوا رجل رجل ، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون .

(الموضع الثاني) في قوله تعالى : (وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها الله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) سورة البقرة .

كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له . وكان مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه ، فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلموا وركب بعضهم على بعض ، فقال ذرو الرأى منهم واللهي : علام يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له ، فكان ما كان مما حكاه القرآن .

عن ابن عباس : أن أصحاب بقرة بني إسرائيل طلبوها أربعين سنة ،

حتى وجدوها عند رجل في بقر له وكانت بقرة تعجبه - فجمعوا
يعطونه بها فيأتى ، حتى أعطوه ملء مسكها دنائير فذبحوها ، فضر به
بعضو منها فقام تشخب أوداجه دماً ، فقالوا له : من قتلك ؟ قال : قتلنى فلان -
وفى رواية : أنهم لما ضربوا القتيل رجعت إليه روحه فسمى لهم قائله ، ثم
عاد ميتاً كما كان .

وقوله تعالى : (كذلك يحيى الله الموتى) تنبيه منه تعالى على قدرته على
إحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتل ، فكان ذلك الصنيع حجة على المعاد
وقاصلاً ما كان من العناد .

وجاء لفظ الآية بالجمع ليدل على أن الإعادة كالاتداء في قدوته ، ولو كان
المراد ذلك القتيل لما جمع فى قوله : (الموتى) .

(الموضع الثالث) فى قوله : (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم
ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس
ولكن أكثر الناس لا يشكرون) سورة البقرة .

ذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة فى زمان
بنى إسرائيل ، استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد ، فخرجوا فراداً
من الموت هاربين إلى البرية ، فمزلوا وادياً أفيح ، فملاوا ما بين عدوتيه ،
فأرسل الله إليهم ملكين : أحدهما من أسفل الوادى والآخر من أعلاه ،
فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم موة رجل واحد ، فحيزوا
إلى حظائر بنى عليهم جدران وفنوا وتمزقوا وتفرقوا ، فلما كان بعد
دهر مر بهم بنى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له (حزقيل) فسأل الله أن
يحييهم على يديه فأجابه إلى ذلك ، فناداهم ، فاجتمعت العظام بعضهم إلى

بعض وكسيت لحماً ورجعت الأرواح إلى الأجساد بأمر الله ، فقاموا ينظرون إلى بعضهم ، قد أحياهم الله بعد رقتهم الطويلة ، وهم يقولون : سبحانك لا إله إلا أنت ، ثم ماتوا بعد ذلك بحسب آجالهم .

فكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع الميعاد الجسماني يوم القيامة . ولهذا قال : (إن الله لذو فضل على الناس) أي فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدافعة . اه ابن كثير .

وقال الرازي : هـ هذه الآية دالة على أن الله تعالى أحياهم بعد أن ماتوا فوجب القطع به ، وذلك لأنه أنفي نفسه جائز والصادق أخبر عن وقوعه ، فوجب القطع بوقوعه ، فتركيب الأجزاء على الشكل المخصوص ممكن ، واحتمالها للحياة ممكن ، وإلا لما وجد أولاً ، وإذا ثبت الإمكان وقد أخبر الصادق عن وقوع ما ثبت في العقل إمكان وقوعه ، وجب القطع به . اه ماخضاً .

(الموضع الرابع) في قوله تعالى : (أو تأتي من على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجدناك آية للناس وانظر إلى المظالم كيف ننشزها ثم نمكسرها لئلا تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير) سورة البقرة .

اختلف العلماء في هذا الموضع من إهر ؟ والمشهور أنه عزيز ، والمشهور أن القرية هي بيت المقدس ، من عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها . فبعثه الله بعد موته ، وكان أول شيء أحياه الله فيه عينيه ، فكان ينظر إلى

صنع الله فيه وكيف يحيي بدينه ، فلما استوى قال الله له بواسطة الملك . كم
لبثت . . . إلى آخر القصة .

وعلى القول بأنه عزيز ، فإنه طالب ذلك ليزداد معرفة و يقيناً وبصيرة ، كما
طلبه إبراهيم عليه السلام ، فإنه لما تبين له أمر الإمامة والإحياء على سبيل
المشاهدة والعيان ، قال (أعلم أن الله على كل شيء قدير) أي قد دلت مشاهدتي
ما كنت أعلمه قبل ذلك الاستدلال .

(الموضع الخامس) في قوله تعالى : (وإذا قال إبراهيم رب أرنى كيف
تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال نخذ أربعة من الطير
فصرهن إليك ثم اجعل على كل جيل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم
أن الله عزيز حكيم) سورة البقرة .

يروى ابن عباس أن الأربعة هي الخرواق والطاووس والديك والحمامة ،
وأجمع أهل التفسير على أن المراد من الآية : (نصرهن) قطعهن ، وأن إبراهيم
ذبحها وقطع أعضائها وخرقها وريشها ودماءها وخالط بعضها على بعض ،
وجزأها أجزاءً وجعل على كل جيل منهن جزءاً ، ثم دعاها كما أمره الله سبحانه
فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم ،
حتى قام كل طائر على حدة وأتبعه يمشين سعيًا ليكون أبلغ له في الرؤية التي
سألها ، ولهذا قال (واعلم أن الله عزيز حكيم) أي عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع
من شيء ، وما شاء كان بلا مانع لأنه القاهر لكل شيء ، حكيم في أقواله
وأفعاله وشرعه .

(الموضع السادس) في قوله تعالى على آسان عيسى عليه السلام (وأرى
الآخرة والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله) سورة آل عمران .

وقوله : (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى
وتبرىء الأكمة والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى) سورة المائدة .

قال السكبي : كان عيسى عليه السلام يحيى الأموات بياحى يا قيوم ، وأحيى
عازر وكان صديقاً له ودعا سام بن نوح من قبره فخرج حياً ، ومصر على ابن ميت
امعجوز فدعا الله فنزل عن سريره حياً - عن الفخر الرازى .

ويروى ابن كثير فى سورة المائدة أنه كان يدعو الموتى فيقومون من قبورهم
بيان الله وقدرته وإرادته ومشيتته ، وينقل عن ابن حاتم أنه كان إذا أراد أن يحيى
الموتى صلى ركعتين . فإذا فرغ منهما مدح الله وأثنى عليه ، ثم دعا بسبعة أسماء :
يا قديم يا خنى بادئ يا فرد يا وتر يا أحد يا صمد ، وكان إذا أصابته شدة دعا بسبعة
آخر : يا حى يا قيوم يا الله يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام يا نور السموات
والأرض وما بينهما ورب العرش العظيم يا رب . يقول ابن كثير : وهذا
أثر عظيم جداً .

(الموضع السابع) فى قوله تعالى : (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم
كانوا من آياتنا عجبا . إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة
وهي لنا من أمرنا رشداً . فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً . ثم
بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً) إلى أن يقول سبحانه (وكذلك
أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون
بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم
لنتخذن عليهم مسجداً) سورة الكهف .

يخبر الله تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم ، لئلا
يفتنوهم عنه ، فهربوا ولجأوا إلى كهف فى جبل ليختفوا عن قومهم ، وقالوا

حين دخوله سائلين المول عز وجل : (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً) وظلوا على الحالة التي حكمها القرآن طيلة ثلثمائة سنة وتسمع سنين صحبة أديانهم وأشعارهم وأبصارهم . لم يفقدوا من أحوالهم شيئاً .

وذكر غير واحد من الساف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة ، وكان منهم طائفة تقول : تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد ، وطائفة أخرى تقول يبعث الروح والجسد فبعث الله أهل الكهف حجة وآية على صحة البعث بالأجساد لأن اتباعهم بذلك القوم الطويل يشبه من يموت ثم يبعث ، وكما حفظ الله تعالى هذه الأجساد طوال تلك المدة الهائلة فهو بقدر على إعادة تلك الأجساد بعد موتها .

وبعد :

فإن هذه الجولة السريعة في آيات البعث في القرآن ، قد أكدت أن الحياة الثانية ماهي إلا من هذا النوع ، وأن البعث إنما هو بالروح والجسد جميعاً ، وفي ذلك أبلغ رد على من ينكره ويبقى بالشبه الواهية أمام تلك الحقائق الإلهية .

واقرا معي قول الله تعالى : (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يفتنون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجهم إلا أن قالوا ائتوا بآياتنا إن كنتم صادقين . قال الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . . الآيات من سورة الجاثية .

وبحانب هذا فإن الأعضاء سوف تشهد على صاحبها يوم القيامة ، حيث ينطقها الله بقدرته القادرة — قال تعالى : (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين) سورة النور .

وقال سبحانه : (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون • حتى إذا جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون • وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء • وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون) سورة فصلات .

ثم كيف يصح في العقل ألا يعاقب جسد في النار قاسمك لئلا تذ الحياة ؟ وكيف لا يثاب جسد في الجنة شاركك البعد عن الشهوات المحرمة ؟ .

ومن لطائف هذا البحث أن بعض الفلاسفة المتكرين للبعث ، جاء لبعض العلماء وسأله : إنك تؤمن بالبعث بعد الموت وتقول : إن الجسد يعاد مرة أخرى بعد أن يبلى ، فما هو الذي يترتب على هذه العقيدة ؟ إنى أرى أن البعث أو عدمه لا يترتب عليه فائدة . فقال له العالم : إن كان هناك بعث فقد نجوت أنا وهاهنا كنت أنت ، وإن لم يكن هناك بعث فقد نجونا جميعا .

قال المذنب والطيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إيكما
إن صح قولك إكما فإست بخاءر أو صح قولى فالحسار عليكما

عاشراً : عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

سنتناول بإذن الله الكلام على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من ناحيتين :

- (أ) بعض الأمور عن العصمة وأقسامها والأمور المعصوم منها .
- (ب) الآيات التي يوضح فيها ظاهرها عدم العصمة .

تعريف العصمة :

هي ما لا تقوم بنفس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، تحملهم على الخيبر وتنهام عن الشر ، مع وجود الاختيار تحقيقاً للإبقاء .

المعصوم منه :

وهم معصومون من أربعة :

- ١ - من الكفر والشرك بالله تعالى .
- ٢ - من الكذب في دعوى الرسالة ، والتبليغ عن الله ما لم يقل به .
- ٣ - من الكبائر .
- ٤ - من الصفات .

١ - العصمة من الكفر والشرك بالله :

اتفقت الشرائع والأديان جميعها ، فأجمعت الأمة : على أن الأنبياء معصومون من الكفر والشرك ، سواء قبل النبوة أو بعدها ، كما أنهم اتفقوا على أنه لم يقع منهم شيء من هذا مطلقاً .

ولسكنهم اختلفوا في جواز وقوعه عقلا ، فبعض الخوارج جوزوه ، لأن الكفر من الذنوب وصدور الذنب منهم جائز - وجوزوه الروافض أيضا ، لأنهم يجوزون إظهار كلمة الكفر على سبيل التقية .

قال الله تعالى : (إئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين)
فهذه الآية الكريمة تهدد وتوعده من يدرك حق الإدراك ويجرى عليه التكليف فضلا عن الأنبياء .

ودليلنا العقلي : أنه لو جاز وقوع الكفر منهم لنفر الناس عنهم ، ولمسكفوا من تبليغ ما أمروا بتبليغه ، وابطلت بعثتهم القائمة على أساس التوحيد وعدم الإشراف بالله ، وهذا لو كان لكانوا داخلين تحت ذم الله لقوم يقولون مالا يفعلون : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون • كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) ، (أنأمرون الناس بالبر ونفسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) .

٢ - العصمة من الكذب في دعوى الرسالة :

يستحيل عقلا على من يدعى النبوة المؤيد بتصديق الله تعالى ، أن يكون كاذبا في دعواه الرسالة ، التي كلف بتبليغها إلى المرسل إليهم ، فانه نبي إلا أيده الله تعالى بالمعجزات الخارقة للعادة القائمة مقام قول الله تعالى : (صدق عبدي فيما يبلغ عنى) ، وإلا فلو ظهرت المعجزة على يد الكاذب لكان تصديقا من الله له ، وهذا قبيح وتناقض محال في حق الله تعالى ، لأنه منزعه عن النقائص ، (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا • أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء) .

وينقل الباقلائي عن بعض الكرامية من المرجئة أنهم يجوزون على الرسل الكذب في التبليغ ، والأمر كما علمنا .

قال الله تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين) .

وقد أثبت القرآن الكريم لهم الرسالة والنبوة في قوله : (ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات) . . (محمد رسول الله) . . (يا أيها النبي) . . (يا أيها الرسول) . . وإذا كان القرآن أثبت لهم النبوة والرسالة فكيف يكونون كاذبين مع ما كلموا به من التبليغ ؟

ثم إن الله أمرنا بطاعتهم والافتداء بهم بقوله : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) . . (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) . . (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) .

وحذر من مخالفتهم بقوله : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) فلو أمر الرسول بأمر غير أمر الله أو نهى عن غير منهى عنه لكان مقتضاه الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف بتأييد الله تعالى وأمره ، وكيف يستقيم هذا والله لا يأمر بالفحشاء ؟ إذن فهذا النوع غير جائز على الأنبياء بأعقل والنقل .

٣ - المعصية من الكبائر :

هذه الكبائر : إما أن تؤدي إلى الخسة والدناءة والفسق وتستقيمهم النفوس ، وإما أن تكون غير ذلك . . وكل منهما : إما أن يقع قبل النبوة أو بعدها .

(أ) أما السكبان الخالية من الحسة والدناة ولا تستقيحها النفوس ، فيجوز عقلا أن يقع منهم ذلك عمداً قبل البعثة ، وذلك لأنهم لم يبعثوا ولم يكلفوا بقبليغ شريعة . حتى ينهوا عنه ، وأيضاً فهي ليست خسيصة في النفس ولم يأت جميل يمنع ذلك .

أما وقوعه فعلا في الخارج ، فهذا ما لم يكن ولم يحصل منهم قطعا ، وأما استدلال الخوارج على وقوعه بالفعل بحادثة موسى عليه السلام مع المصري ، وقوله : (هذا من عمل الشيطان) وقوله : (فعلتها إذن وأنا من الضالين) :

فإن القتل في ظاهره ظلم وليس له حق فيه حيث قتل نفساً بغير نفس ، ولكن الجمهور على أن ما حصل من موسى لم يكن يقصد منه القتل ، بل كان يقصد الدفاع عن رجل من شيعته ، فوكر المصري فأتى بدون قصد له ، وأيضاً فإن هذا المصري كان كافراً وكان مستحقاً للقتل .

وقوله : (هذا من عمل الشيطان) فإن الله نذبه إلى تأخير القتل إلى حال القدرة ، فأقذاه على ترك المندوب من عمل الشيطان ، وقوله (إن ظلمت نفسي) أي بحرمانها من ثواب المندوب لو أخرت القتل ، وقوله : (من الضالين) أي من المتحيرين لا يدري ما يجب عليه أن يفعله .

(ب) أما وقوع السكبان الخسيصة والتي تستقيحها النفوس قبل النبوة عمداً فمستحيل عليهم وهم معصومون منه ، لأنه لو حصل منهم ثم أمروا الناس ونهواهم لوقف ماضيهم حجر عثرة دون طاعة الناس لهم ونهروا عنهم ، فينقلب أمر الرسالة على عكس ما أراد الله تعالى ، ولكن هذا لم يكن ولم

ينقل إلينا، فقد كان المرسلون في غاية السكال الإنساني والادب الرباني ،
غلبت أنهم معصومون من الكبار عقلاً وفعلًا، والله تعالى يقول: (الله أعلم حيث
يجعل رسالته) . . (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) . .
(وما كان لنبي أن يغفل ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة) .

(ج) أما وقوع الكبار منهم قبل النبوة سهوًا ، فإن كان فيه خسة
ودناءة فهم منه معصومون قطعاً ، وأما الخالية من الخسة والدناءة فقد تقع
منهم ، فالكبار التي تقع سهوًا منهم ولا تؤدي إلى خسة ولا إلى دناءة
جائزة عليهم ، إن كانت قبل النبوة ، بدليل قول الله تعالى : (وعصى آدم
ربه فغوى ، ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدي) . . (ولقد عهدنا إلى آدم
من قبل قنسى ولم نجد له عزماً) ومؤدى هذا أنه فعل الكبيرة حيث أكل
مما نهى الله عنه ، على سبيل النسيان ، وكان ذلك قبل أن يجتبه ربه
ويحمّله النبوة .

(د) وقوع الكبار منهم بعد النبوة :

جوز جمهور العلماء وقوع الكبيرة من الأنبياء بعد النبوة ، وشرطوا أن
يكون ذلك سهوًا أو نسيانًا أو خطأ في التأويل .

واستدلوا على ذلك بآيات من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : (عفا
الله عني لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) . . وقوله
(ما كان لنبي أن يهلك له أسرى حتى يشحن في الأرض يريدون عرض
الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم) . . إلى غير ذلك من الآيات .

وهذا الرأي وإن كان رأى الجمهور ، ولاكتنا يجب علينا أن نرفع الأنبياء
إلى ما هو أحسن وأفضل من هذا ، فنقول وبالله التوفيق :

هذه وأمثالها لا تعتبر من الكبائر ، فلتنبى أن يجتهد ويفعل ما يراه من المصالح في نظره ، ثم إن كانت صواباً وافقه الوحي عليها ، وإن كانت غير هذا فإن الوحي ينزل بالتصحيح ، ومع هذا فإن إجتهاادات النبي ﷺ كانت من باب (حسنات الأبرار سيئات المقربين) فهي ليست ذنباً في ذاتها ، ولكن نظراً لمكانة النبي اعتبرت من باب خلاف الأولى ، وأيضاً فلو سلمنا فإن المجتهد إن أصاب فله أجران وإن أخطأ فلو أجر واحد ، وأيضاً فإن قول الجمهور ليس محرراً ، لأن هذه الأمور جوزوا وقوعها منهم سهواً أو نسياناً أو خطأ في التأويل ، وهذا لا يجعل الأمور المذكورة من باب الكبائر ، بل لا تعتبر من باب الذنوب أصلاً .

والخلاصة : أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا تقع منهم الكبائر بعد النبوة ولو سهواً أو خطأ ، ولما كنهم يجتهدون فلو فرض وأنهم أخطأوا صحح الوحي لهم الخطأ ، وهذا لا كبيرة فيه ، لأنهم اجتهدوا في صورة ليس فيها نص . والله أعلم .

ج - العصمة من الصغائر :

اتفقوا على أن الصغائر يصح وقوعها قبل النبوة وتبقى الرسالة ، واختلفوا في وقوعها بعد الرسالة ، فبعضهم جوزها وبعضهم منعها ، والحق أنها لا تقع إلا عن سهو أو خطأ ، وإما عن عمد فلا .

الأدلة على عصمة الأنبياء :

أورد الفخر الرازي في كتابه عن (عصمة الأنبياء) أدلة كثيرة على وجوب عصمتهم نأخذ منها ما يلي :

(الدليل الأول) أنه لو صدر الذنب عنهم لكان حالهم في استحقاق الذم عاجلاً والعقاب أجلاً أشد من حال عصاة الأمة ، وهذا باطل فصدور الذنب عنهم باطل كذلك .

بيان الملازمة : إن أعظم نعم الله على العباد هي نعمة الرسالة والنبوة ، وكل من كانت نعم الله عليه أكثر كان صدور الذنب عنه أخف ، والعقل يدل عليه ، وكذلك النقل في قوله تعالى : (يا أيها النبي من يأتي منك بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) . . . الآيتين .

(الدليل الثاني) أنهم كانوا يأمرون بالمعروف وفعل الطاعة وينهون عن المنكر وترك المعصية ، ولو تركوا المعروف وفعلوا المعصية لدخلوا تحت قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون) **كبر** مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) ، قوله : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وهذا في غاية القبح ، وقد أخبر الله تعالى عن شعيب عليه السلام أنه برأ نفسه من ذلك فقال : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاركم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) .

(الدليل الثالث) قوله تعالى : (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) فلفظ (المصطفين) ولفظ (الأخيار) يتناولان جملة المأمورات والمنهيات ، بدليل صحة الاستثناء في قولك : فلان من المصطفين الأخيار إلا في كذا ، والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل ، فدللت الآية على أنهم كانوا من المصطفين الأخيار في كل الأمور .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : (الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس) . وقوله : (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران

على العالمين) . وقوله : (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) .

(الدليل الرابع) لو صدر الفسق عن سيدنا محمد ﷺ فإما أن نكون مأمورين بالاعتداء به وهذا لا يجوز ، أو لا نكون مأمورين بالاعتداء به وهذا باطل أيضاً ، لقوله تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) . ولقوله تعالى (فاتبعوه) ولما كان صدور الفسق يقتضي إلى هذين القسمين الباطلين ، كان صدور الفسق عنه ﷺ محالاً .

(الدليل الخامس) قال الله تعالى في حق سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام (إني جاعلك للناس إماماً) والإمام هو الذي يقتدى به ، فلو صدر الذنب عنه لسكان اعتداء الخلق به في ذلك الذنب واجباً ، وهذا باطل .

(الدليل السادس) أن الله تعالى قسم المكافين إلى قسمين : حزب الشيطان وحزب الله ، قال سبحانه : (أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) وقال : (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) . وحزب الشيطان هو الذي يفعل ما يأمره به الشيطان ، ولو صدرت الذنوب عن الأنبياء لصدق عليهم أنهم من حزب الشيطان ، ولصدق عليهم هم الخاسرون ، وصدق على آحاد الأمة الزاهدين هم المفلحون ، وحينئذ يكون الواحد من الأمة أفضل بكثير من الأنبياء ، وهو باطل :

(الدليل السابع) قوله تعالى : (لا ينال عهدي الظالمين) فكل من أقدم على ذنب فهو ظالم لنفسه لقوله تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه) .

وذلك العهد الذي حكم الله به أنه لا يصل إلى الظالمين إما أن يكون عهد النبوة أو الإمامة ، فإن كان الأول فهو المقصود ، وإن كان الثاني فالمقصود أظلم ، لأن عهد الإمامة أقل درجة من عهد النبوة ، فإذا لم يصل الظالم المذنب إلى عهد الإمامة ، فمن باب أولى لا يصل إلى عهد النبوة .

بعض شبهات توهم عدم عصمة الأنبياء وردّها

ورد في القرآن الكريم آيات يوهّم ظاهرها عدم عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ونحن نورد بعضها على سبيل الاختصار ، تكون نماذج تحتذى فيما لم ننص عليه :

آدم عليه السلام :

١ - عصى ربه حيث أكل من الشجرة المنهى عن الأكل منها ، وهي مذكورة في سورة البقرة والأعراف وطه وغيرها . فالآيات تدل في مجموعها على ما يأتي :

أولاً : أنه عصى بدليل (وعصى آدم ربه فغوى) والعاصي صاحب كبيرة ، لقوله تعالى : (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها) .

ثانياً : أنه ارتكب المنهى عنه ، لقوله تعالى : (ألم أنهيكم عن تلك الشجرة) وارتكب المنهى عنه عين الذنب .

ثالثاً : أنه تعالى سماه ظالماً في قوله : (فتكونا من الظالمين) وصمى نفسه ظالماً في قوله : (ربنا ظلمنا أنفسنا) والظالم ملعون لقوله : (ألا لعنة الله على الظالمين) إذن فهو صاحب كبيرة .

والجواب : أن ذلك كان قبل النبوة ، فلا يكون مورداً للاعتراض على عصمته وهو نبي دليل هذا الجواب دشم اجتيازه ربه فتاب عليه وهدى ، وأما هل رأى من يمنع صدور المعصية عن الأنبياء قبل النبوة فالجواب :

أولاً : أن المعصية مخالفة الأمر ، والأمر يكون بالواجب والمندوب ، وإطلاق اسم المعصية على آدم لكونه تاركا للمندوب ، أو لأنه لا يليق بمكانته .

ثانياً : أن النهي للتنزيه لا للتحريم ، ومعناه أن النهي يفيد أن جانب الترك واجب على جانب الفعل ، ولو سلمنا أنه للتحريم فإنه كان ناسياً ، فنهى ولم يجهل له عزماً ، والتكليف مرتفع عن الناس ، ولو سلمنا أنه ما كان ناسياً فإنه أخطأ في الاجتهاد ، لأن كلمة هذه ، في : ولا تقر بها هذه الشجرة ، قد يراد بها الشخص أو النوع ، فنأول آدم النهي على الشخص فعدل عنه إلى شخص آخر ، والمجهول إذا أخطأ في الفروع لم يكن صاحب كبيرة .

ثالثاً : أن من يجوز الصغيرة على الأنبياء ، يؤزر فعل آدم بأفه من باب أن كل ذنب يأتي به المكلف كبيراً كان أو صغيراً فهو ظالم لنفسه ، وأما من لم يجوزها فيجيب بأن ترك الأولى ظلم ، لأنه لما تمسك من فعل الأولى لثواب عليه الثواب العظيم وتركه من غير موجب فقد ظلم نفسه لأن حقيقة الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، ولها معنا كذلك .

٢ - قوله تعالى : (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما نفشاها حملت حملاً خفيفاً فررت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين . فلما آتاها صالحاً جهلاً له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون) .

فالنفس الواحدة هي نفس آدم ، وزوجها هي حواء ، وهذا يقتضي صدور الشرك عنهما ، وقد جاء أن إبليس تعرض لحواء وقال لها : إن أحبيت أن يعيش ولدك فسميه عبد الحارث ، وكان إبليس يسمى الحارث فسمته بهذه التسمية .

والجواب : أن الخطاب لقريش وهو آل قصى ، أى خلقكم يا قريش من نفس قصى ، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها ، فلما أتاهما ما طلبا من الولد الصالح سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصى وعبد الداد ، والضمير في « يشركون » لهما ولأعقابهما . أو أن الكلام يرجع لآدم وحواء في الضمائر ، ما عدا ضمير « جملا » ، « يشركون » فإنهما يرجعان إلى نسلهما ، والتقدير : فلما أتى الله آدم وحواء الولد الصالح الذى طلباه ، جعل كفار أولادهما ذلك مضافاً إلى غير الله ، وثى ذكرهما لأن المراد جنسهما من الذكر والأنثى ، ويؤيد هذا ضمير الجمع في « يشركون » ، وإنما أسند الفعل لآدم وحواء لأنهما الأصل في إيجاد الأولاد ذكوراً وإناثاً .

والجواب الأول أرجح لأن الثانى فيه تفكيك للنظم الكريم .

وأما ما ذكره من تعرض إبليس لحواء فهى رواية ضعيفة لا تقبل فى الأمور العلمية ، وكيف يعقل هذا والعداوة الشديدة التى كانت من أول الأمر بين آدم وحواء وبين إبليس ، مانعة لهما من الاعتذار به — والمعجب أن ابن جرير أغتر بهذه الرواية وادعى الإجماع عليها وأخذ يؤولها ، وما كان أغناه عن هذا .

يقول ابن حزم فى الفصل : إن هذه الرواية خرافة موضوعة مكذوبة من تأليف من لا دين له ولا حياة ولم يصح سندها قط . اه بتصرف .

نوح عليه السلام :

قال الله تعالى في شأنه : (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إن أعظك أن تكون من الجاهلين) .

أولاً : طلب نوح من ربه أن ينجي ابنه من الغرق لأنه سبق له أن وعده بنجاة أهله ، وأعلمه الله أنه عمل غير صالح فليس من أهله الذين وعدوا بالنجاة ، وقال له : (فلا تسألن ما ليس لك به علم إن أعظك أن تكون من الجاهلين) .

ثانياً : قال خبراً عن نوح : (قال رب إن أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تنفري وتزجني أكن من الخاسرين) .

ثالثاً : قرأه : (إنه عمل غير صالح) والضمير عائد إلى السؤال :

والجواب : قال ابن حزم : إن نوحاً عليه السلام تأول وعد الله تعالى أن يخلصه وأهله ، فظن أن ابنه من أهله على ظاهر القرابة ، وهذا لو فعله أحد كان مأجوراً ، ولم يسأل نوح تخلص من أيقن أنه ليس من أهله ، فتفرع على ذلك نهى عن أن يكون من الجاهلين ، فقدم عليه السلام ونوع ، وليس هاهنا عمد للمعصية البتة . اهـ

ونقول : إن لنا جوابين :

الأول : أن نوحاً عليه السلام لم يكن يعلم أن ابنه من الكافرين ،

حيث إنه طلب منه أن يركب معه ، ولا ينحاز إلى الكافرين ، لأنه ليس كافراً ، وكان رد ابنه : « سأوى إلى جبل يعصم من الماء ، وهو رد لا يشتم منه راحة الكافر ، فجهله أن ابنه كان كافراً وهو لا يعلم حقيقة أمره .

الثاني : أن قوله (إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم) لا يدل على أنه فعل ذلك ، ولو سلمنا أنه دعاء وطلب منه الركوب ، فقد كان ذلك بعاطفة الأبوة رجاء إنقاذ ابنه الذي يعلم كفره ، فرد الله عليه بأنه من أهلك في النسب ، وليكني أردت أهلك من المؤمنين ، وهو ليس منهم فلا يصح أن ينسب إلى الفئة المؤمنة ، فلا يصح لنبي أن يقدم عاطفة الأبوة على الدين .

ولا يقال : لم سأل من غير إذن ؟ لأنه لما لم يجد نصاً يمنع منه تمسك بالجواز في الإباحة الأصلية ، أو أنه كان مسلماً في الظاهر وكان نوح عليه السلام مأذوناً له في دعاء المسلمين فدعاه بحكم الظاهر .

إبراهيم عليه السلام :

١ - قال تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه السلام (هـذا ربي) : مشيراً إلى الكواكب مرة ثم إلى القمر مرة أخرى ثم إلى الشمس مرة ثالثة .

وحججه المعترضين : أنه إن كان قال هذا الكلام في معرض النظر والاستدلال كان قطعه بذلك مع تجويز أن يكون الأمر بخلافه ، إخباراً عما يجوز أن يكون الخبر كاذباً فيه ، وذلك غير جائز . وإن قال ذلك الكلام بعد الاستدلال كان كفراً فضلاً عن الكذب .

والجواب : أن كلامه كان على سبيل الفرض لا على سبيل الإخبار ،

وذلك حال اشتغاله بالنظر والاستدلال ، وفائدة ذلك أن يظهر ذلك
الفرض ما يقصد إليه من الفساد ، وقد عقبه بما يدل على فساد وهو قوله :
(لا أحب الآفان) .

وإن قلنا : إنه تسكلم به بعد فراغه من النظر والاستدلال وصيرورته وقتاً
بالله حق اليقين ، فإنه تسكلم بذلك على ما هو الأمر عندهم ، ومنه قوله تعالى :
(وانظر إلى إلهك) أى فى زعمك .

ويمكن أن يراد من الكلام الاستفهام وأسقطناه استغناء عنه . أو أن
إبراهيم عليه السلام أراد أن يبطل قول الكفار بتعظيم الكواكب ، فأوضحهم
أنه يعظمها ، ثم عقب بذكر الاستدلال على بطلانه .

يقول ابن حزم : والصحيح من ذلك : أنه إنما قال هذه المقالة ونحو قوله ،
ولذلك لم يعاتبه الله على شيء من ذلك ، بل قال : (وتلك حجتنا آتيناهما
إبراهيم على قومه) فوافق مراد الله تعالى .

٢ - قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام لما سأله : (أنت فعلت
هذا بأهلكنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا) . وعنى بالكبير الصنم ،
وهو كذب لأنه هو الذى كسرها .

والجواب : أنه كناية عن غير مذكور ، أى فعله من فعله ، و (كبيرهم
هذا) ابتداء كلام ، و يروى عن الكسائى أنه كان يقف عند (بل فعله)
ويبتدىء بـ (كبيرهم هذا) .

أو أنه ذكره إلزاماً لهم . لأنه لما كان هو الإله الأكبر فكسر خدمه
المقربين لديه لا يصدر إلا عنه .

يقول ابن حزم : هو تفريع وتوبيخ لهم ، كقوله تعالى (ذق إنك أنت
العزيز الكريم) وهو في الحقيقة مهان ذليل معذب في النار . اه باختصار .

٣ - قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه السلام : (فنظر نظرة في النجوم
فقال إني سقيم) .

وفيه أنه تمسك بعلم النجوم ، وكذب في قوله : (إني سقيم) .

والجواب : أننا لا نسلم أن النظر في النجوم حرام . لأن من اعتقد أن
الله تعالى هو الذي أجرى العادة ، وأنه تعالى خلق في الحوادث قوى مخصوصة
تجعلها أسباباً لحدوث الحوادث في هذا العالم ، فعلى هذا لا يكون النظر في
النجوم حراماً . ويحتمل أنه نظر فيها تشبيهاً بأهل زمانه في الظاهر ، وحكم بأنه
سقيم إيهاماً على قومه أنه استدل على ذلك بالنجوم ، وإن كان الأمر في نفسه
ليس كذلك .

وأما دعوى أنه كذب : فإنه كان سقيماً في تلك الساعة على معنى أنه كان
مشرفاً على السقم من باب : (إنك ميت وإنهم ميتون) . أو أراد ما في قلبه
من الهم والحزن بسبب ما عندهم من الكفر والعناد .

وما رواه البخاري ومسلم من قوله ﷺ : (ما كذب إبراهيم إلا ثلاث
كذبات قوله : إني سقيم . وقوله : بل فعله كبيرهم هذا . وقوله لسارة :
إنها أختي) فإنه من أخبار الأحاد فلا يعارض الدليل القطعي ، من نحو
قوله تعالى : (وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال
لأبيه وقرنه ماذا تعبدون . أنفسكم آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب
العالَمين) وقوله : (وإبراهيم الذي وفى) وقوله : (أو لم تؤمن قال بلى)

وقوله سبحانه (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه) . ولئن سلمنا بالحديث فإنه يحتمل على ما يكون ظاهره الكذب ، وأخوته لسارة في الدين ، أو من كونهما ينتسبان لأدم أو لسائر الأجداد .

٤ - قول الله تعالى : (وإذا قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى ...) الآية . وهو يدل على أنه لم يكن موقناً بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى .

والجواب : أن ذلك وقع عند وصول الوحي إليه ، فإنه كان يريد أن يعرف علامة يعرف بها أنه نبي حق ، فالمعنى : أو لم تؤمن بأنك رسول الله ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي على كوني رسولا من قبلك لا من قبل الشيطان .

أو أن ذلك وقع بعد النبوة ويكون المراد : ليطمئن قلبي على قدرتك على الإحياء بالمشاهدة ، فإن البرهان إذا تأيد بالمشاهدة صار أقوى وأعم ، وإن إبراهيم عليه السلام ما أراد إثبات القدرة بالدلالة العقلية ، بل أراد إثباتها بالمشاهدة ، فإنه لا يجب على المستدل أن يقف عند دلائل معين ، كيف وفي الرجوع إلى المشاهدة مزيد فائدة لأن الحسنى أقوى في الاستدلال . ثم إنه عليه السلام كان سؤاله منصبا على الكيفية . ويمكن أن يحاسب بأنه عليه السلام لما أمر بالتبليغ ، فسكر وقال : لعل الخصوم يطالبوني بمعجزات غريبة ، فسأل الله تعالى عن هذا الأمر الغريب ، فقوله : (ليطمئن قلبي) غير متعلق في الآية على شيء معين ، فلك أن تصرفه إلى أي شيء شئت سوى الإيمان .

٥ - قال الخصوم : إن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه وهو كافر ، والاستغفار للكافر غير جائز ، فقد فعل ما لا يجوز . واستغفاره لأبيه جاء

في قول الله تعالى : (واغفر لآبي إنه كان من الضالين) . وأما أنه لا يجوز
فلقوله : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا
أولى قربى) .

والجواب : اهل إبراهيم عليه السلام لم يجد في شرعه ما يدل على القطع
بعذاب الله للكافر ، فمن هنا استغفر لأبيه ، أو أنه استغفر له لأنه كان يرجو
منه الإيمان ، فلما أيس منه ترك الاستغفار ، دليل هذا قول الله تعالى : (فلما
تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) .

ثم إنه ليس في لفظ (النبي) من قوله : (ما كان للنبي) عموم ، فإن الاسم
المفرد المحلى بأل لا يقتضي العموم ، قالني نحول على نبينا محمد ﷺ ، ولا
يتناول إبراهيم عليه السلام .

يوسف عليه السلام :

١ - قال الله تعالى (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب)
وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه دني أحسن مشواي إنه لا يفلح الظالمون .
ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء
والفحشاء) ...

والجواب : أن يوسف عليه السلام شهد ببرأته من الذنب كل من له تعلق
بتلك الواقعة ... فقد شهد الزوج (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم .
يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين) وشهد
الحاكم (وشهد شاهد من أهلها إن كان قيصه قد من قبل فصدقت وهو من
الكاذبين . وإن كان قيصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) .

وشهد النسرة (حاش لله ما علينا عليه من سوء) . وشهد الملك (إنك اليوم لدينا
مكن أمين) . وشهد الخهم (الآن حصص الحق أنا راودته عن نفسه) وبرأ
نفسه (هي راودني عن نفسي) . ثم إن رب العالمين شهد ببراءته (كذلك
لنصرف عنه السوء والفحشاء) فأية شبهة تبقى مع هذه الشهادات ببراءته عليه
السلام ؟ والهم في اللغة يطلق عن معان : المزم . الخطور بالبال . المقاربة .
الشبهة وميل الطبع .

فلو حمل الهم عن المزم : فإنه معلق بذاته وذاتها على حسب ظاهر الآية ،
وذلك غير جائز لأن الذات لا ترد ، فلا بد من تعليق الهم بشيء غير
الذات ، أما هما فقد كان متعلقاً بالفاحشة للنص ، وهو قوله تعالى :
(وراودته) (تراود فتاها) . (أما راودته) وقد أجمع المفسرون على أنها
همت بالفاحشة والمهضية ، وأما همه فليس في ظاهر الآية ما يفسره ، وقد
قامت الأدلة على أنه لا يتعلق بالفاحشة فيمكننا أن نقول : أنه متعلق بدفعه
ليأها عن نفسه .

أو أن الكلام على التقديم والتأخير ، أي ولقد همت به ولولا أن رأى
برهان ربه لهم بها ، كقولك : قد كنت هلكت لولا أن تداركته . . وقوله
تعالى : (إن كانت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها) .

وقد اختلف النحويون في تقديم الجواب ، ورأينا أنه إذا دار الأمر بين
أن يكون جواباً محذوفاً وبين أن يكون متقدماً عليها ، فلا شك أن التقديم
أولى من الحذف . ١ ه : الفخر الرازي .

وحيث لم يكن منه عليه السلام هم مع برهان ربه ، فما فائدة قوله :

(وهم بها) ؟ نقول : إنه لم يكن به رغبة عن النساء لعجز فيه ، ولكن ترك ذلك مخافة الله وطلباً لثوابه .

والبرهان هو علمه بما على الزاني من عقاب وحجة الله في تحريم الزنى ، أو ما آتاه الله من آداب أنبيائه من العفة وصيانة النفس عن الأرجاس . وقيل غير ذلك .

٢ - كيف يقول عليه السلام : (السجن أحب إلى) والسجن معصية ، ومحبة للمعصية معصية ؟

والجواب : هو من باب توطئ النفس على المشاق ، أو أنه اختار أخف الشيتين المسكروهين جداً .

٣ - كيف يقول على غير الله في الخلاص من السجن في قوله : (أذكرني عند ربك) ؟ حتى قالوا : إنه طال سجنه لهذا ؟

والجواب : أن التمسك بالأسباب لا ينافي حقيقة التوكل .

٤ - ما معنى (جعل السقاية في رحل أخيه) ؟

والجواب : المراد أنه تسبب في احتباس أخيه عنده ، ولعل ذلك بأمر من الله تعالى ، وروى أنه أعلم أخاه بذلك ليجعله طريقاً إلى التمسك به ، وعلى هذا لا يكون ذلك سبباً في إدخال الغم على قلب أخيه .

٥ - ما معنى أن يطلب الولاية لنفسه في قوله : (اجعلني على خزان الأرض) ؟

والجواب : أنه التمس بتمكينه في الأرض أن يحكم فيها بالعدل ، لأنه كان مستحقاً لذلك بسبب نبوته ، والمستحق أن يتوصل إلى حقه بأي طريق مشروع .

موسى عليه السلام :

١ - قول الله تعالى : (فوكره موسى فقضى عليه) :

وقتل موسى للقبطى إما أن يكون لأنه مستحق له أولاً ، فإن كان الأول فلم قال : (هذا من عمل الشيطان) ، (إني ظلمت نفسي) . . الآية ، (فعلتها إذن وأنا من الضالين) ؟ وإن كان الثانى كان عاصياً فى قتله .

والجواب : أنه استكفره كان مستحقاً للمقتل ، أو أنه قتله خطأ ولم يكن يقصد ذلك ، بل قصد تخليص الذى من شيعته .

وأما الآيات فمن جوز الصغيرة حملها عليه ، فإن التوبة والاستغفار تجب ما قبله من الصغائر كما تجب الكبائر . وبقي فى الآيات بعض التفاصيل :

قوله : (هذا من عمل الشيطان) : معناه أن الله نذبه إلى تأخير قتل أولئك الكفار إلى حال القدرة ، فلما قتل فقد ترك المندوب - أى أن إقدامى على ترك المندوب من عمل الشيطان . أو أن اسم الإشارة يرجع إلى المقتول ، أى أنه من جند الشيطان وحزبه ، يقال : فلان من عمل الشيطان أى من أصحابه . وقوله : (إني ظلمت نفسي فاعف لي) أى أنه ظلم نفسه حيث حرماها من الثواب على فعل المندوب ، أو اعترف بالتقصير عن حقوق الله وإن لم يكن هناك ذنب قط .

وقوله : (فاعف لي) أى اقبل منى هذه الطاعة والانقطاع إليك . وأما قوله (فعلتها إذن وأنا من الضالين) فلم يقل إني صرت بذلك ضالاً ، فإنه كان ينقذ عن نفسه الكفر الذى ادعاه عليه فرعون ، فاعترف بأنه كان ضالاً متحيراً لا يدري ما يجب عليه أن يفعله وما يريد فى ذلك .

(٢) قول الله تعالى : « وألقى الألواح » .

الأمير لا يخلو أن يكون صدر الذنب عن هارون عليه السلام ما استحق به ذلك التأديب ، أو لم يصدر عنه بل صدر عن موسى عليه السلام .

وأيضاً فإن هارون نهى موسى « لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي » ، فإن كان موسى مصيباً فيما فعله مع هارون كان هارون عاصياً في منعه عن فعل الصواب ، وإن كان هارون مصيباً في ذلك المنع كان موسى عاصياً في ذلك الفعل .

والجواب : أن موسى أقبل وهو غضبان على قومه ، فأخذ برأس أخيه وجره إليه كما يفعل الإنسان بنفسه في مثل هذا الموقف ، وأجرى موسى أخاه مجرى نفسه ، لأنه كان شريكه ، فصنع به مثلاً يصنع الرجل بنفسه في حال الغضب . وقوله « لا تأخذ بلحيتي » لا يمتنع أن يكون هارون خاف توهم بنى إسرائيل لسوء ظنهم أنه متكر عليه معاذب له ، ولذا قال « إني خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل » ، وقال : « ابن أم إن القوم استضعفوني » .

ثم إن بنى إسرائيل كانوا في نهاية سوء الظن بموسى ، حتى أنهم اتهموه بقتل هارون ، فلما واعد موسى ربه أربعين ليلة وكتب له في الألواح من كل شيء ، رجع فرأى في قومه ما رأى ، فأخذ برأس أخيه ليعرف منه القصة ، يخاف هارون أن يسبق إلى قلوبهم ما لا أصل له في الحقيقة من رغبته في كيفية الواقعة . فلما أدناه منه قال له إشفافاً عليه « لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي لئلا يظن القوم بك سوءاً » .

وما جرى من موسى هو الذي يكون في الواقع ، فإن المفكر الغضبان

قد يعرض على شفتيه أو يقلب أصابعه أو يقبض على لحيته ، أو يحرق أو يسبح أو نحو ذلك ، دليلاً على عدم رضاه بما حصل أو إشفاقاً من وقوع المكره .

داود عليه السلام :

(١) قال تعالى : (وهل أناك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب) إلى آخر الآيات الكريمة من سورة « ص » .

وذلك الآيات لا تدل على صدور الكبيرة من داود عليه السلام ، لوجه : الوجه الأول : ما نقله بعض كتب التفسير أنه عشق امرأة أوريا ، فاحتال حتى قتل زوجها ثم تزوجها ، لا يليق بأفسق الملوك فضلاً عن أفضلهم فضلاً عن الأنبياء عليهم السلام .

الوجه الثاني : أن ارتكاب جريمة القتل أعظم عند الله مما يحكونه ، فكيف يترك الله الذنب الأعظم ويقتصر على الأنف ؟

الوجه الثالث : أن الله تعالى ذكر في السورة الكريمة حاجة منكري النبوة وإلخمشهم ، فلا يليق مع هذا القدح في نبوة بعضهم بهذا الفسق القبيح .

الوجه الرابع : أنه سبحانه وصف نبيه داود عليه السلام في ابتداء القصة بأوصاف حميدة ، وهذا ينافي ما ذكره من صفة الذم . إقرأ في هذه السورة تلك الصفات الحميدة .

« ذا الأيد » أي القوة في الدين . « إنه أواب » أي رجع إلى الله . « وآتياه الحكمة » والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغي علماً وعملاً . « يا داود إنا جعلناك خليفة » وهذه من أجل الصفات ، وهي تتناقض مع

وصفه بوصف الحسة ومزاحته أفضل أصحابه وأحبائه في زوجه والدفع به إلى القتل .

ثم إن هذا يتناقض أيضاً مع قوله في حق الرسل (إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) وإنهم عندنا من المستطفين (الأخيار) في أثناء ذكر الأنبياء في نفس السورة ، وهذا الوصف يناقض وصفهم بالإقدام على الكبيرة والفاحشة .

وهل ما وصفوه به يتفق مع وصف الله له (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) ١٤ .

كل ذلك وغيره يثبت براءة داود عليه السلام عما يفسبه إليه البعض من المفسرين أو غيرهم .

يقول ابن كثير : هذه القصة أكثرها مأخوذة عن الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، وما رواه ابن أبي حاتم لا يصح سنده لأن فيه يزيد الرقاشي ، وهو وإن كان الصالحين لكنه ضعيف الحديث جداً عند الأئمة . اهـ بتصرف .

ويحذر بنا الآن أن نقسكم على بعض مباحث في الآيات الكريمة :

إن الله تعالى أخبر عن جماعة أنهم تسودوا المحراب على داود في يوم عبادته وخلوته ، فلما رأهم خافهم لما وقر في الذهن والعرف أنه لا يتسود أحد سور غيره إلا أسوء يريد به من قتل أو سرقة أو غيرهما ، فلما رأهم فرح منهم فطمأنوه ، وأخبروه أنهم جاءوا يحتسبون إليه ، فلم ينتقم منهم مع أنه ذو أيد وقوة وسلطان وقدر ، بل استغفر ربه لهم وطلب منه

سبحانه أن يهفو عنهم ، فإن الله تعالى لم يقل إنه أذنب ولا أنه استغفر لنفسه والمستغفر قد يستغفر لنفسه أو لغيره ، ومنه قوله تعالى : (ويستغفرون للذين آمنوا) وقوله : (يا أيها المستغفر لنا) .

وأما قوله تعالى : (فغفرنا له ذلك) أي غفرنا لأجله ولأجل حرمة ذنب أولئك المقسورين . وهذا التأويل يمتاز بأنه لا يحتاج إلى المجاز من كون الحصين ملكين وحمل النعجة على المرأة ، مع ما يناسب هذا من المنصب العظيم ، الذي ذكره الله عقب القصة ، وهو خلافة الله في الأرض .

وجه آخر في تأويل الآيات : أنه استغفر ربه لأنه ظن أن القوم يريدون قتله ، فلما لم يكن الأمر كذلك ندم على ذلك الظن وكان الاستغفار لأجل هذا الظن : وهذا الجواب ذكره أبو حيان ، وهو أحسن ما قيل في تأويل ذنب داود عليه السلام .

أو لأنه لما لم ينتقم منهم مع القدرة على الانتقام دخله شيء من العجب على حلمه عليهم وعدم إنزال العقوبة بهم ، فكان الاستغفار لأجل العجب بالنفس .

أو أن هذا الأمر من قبل الصغار التي يبعد عنها الأنبياء ، فإنه تعجل الحكم وكان الواجب عليه أن يسمع الدعوى من الآخر ، ولا يقضى قبل ذلك . ومن قال بهذا الجواب قال : إن الفزع منهم أنساه التثيت والتحفظ ، وحملوا التماكم على ضرب المثال ، وإلا فيلزم إقدام الملك على الكذب ، وحملوا النعاج على النسوة .

ونتنبه إلى أنه ليس في القرآن أنه صدقه من غير ظهور الحاجة ، إذ المراد إن كان الأمر كما ذكرت فقد ظلمك . أو أنه حكم بهذا الحكم (لقد ظلمك

بسؤال نعيمك إلى تعاجله) بعد سؤال المدعى عليه وإفرازه بصحة الدعوى والقرآن لم يصرح بهذا لأن حذف ما يعلم جائز .

ومن الأجوبة التي ذكرها المفسرون : أن أوريا خطب امرأة ثم خطبها داود على خطبته ، فأثره أهاماً فتزوجها ، فذنبه أنه خطبها على خطبة أخيه ، وهو وإن كان جائزاً في شرعه ، لكن مثل داود النبي ينبغي أن يرفع عنه ، وبخاصة أنه مستغن بمن عنده من نساء كثيرات ، فعوتب لهذا ، وهذا الرد من أحسن الردود ، إلا أنه يحتاج إلى ما يثبت أنه خطب على خطبة أخيه .

ولعل أفضل هذه الردود جميعاً ، ما قاله أبو حيان أنه أساء الظن في أنهم جادوا لا غياله ، فسجد لله مستغفراً منياً إليه ، فنهى الله له ذلك .

(٧) قول الله تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحَرْث إذ نفثت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين) ففهمناها سليمان) . الآية .

الاعتراض هو : لو كان داود مصيباً في حكمه لما خص الله سبحانه سليمان بقوله (ففهمناها سليمان) .

والجواب : تخصيص سليمان عليه السلام بالذكر لا يدل على أن داود بخلافه ، ثم إن داود عليه السلام كان عالماً به . لكنه ما أفتى امتحاناً لابنه سليمان ، رجاء أن يفتي به وتقر عينه بابنه ويعلو شأنه بين الناس ، وإنما أعرض عن ذكر داود للعلم باشتهاره بين الخلق بمعرفة الأحكام ، وأقرأ قوله تعالى عقب الآية السابقة (وكلا آتينا حكماً وعلماً) .

سليمان عليه السلام :

وفيه قوله تعالى : (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً) الآية . والفتنة : الابتلاء والاختبار والامتحان .

وقوله تعالى : (وألقينا على كرسيه جسداً) فالمحققون فيه على أقوال :

الأول : أن سليمان قال : لأطرفن الليلة على مائة امرأة ، فتلد كل منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فطاف ولم تحمل إلا واحدة ، فولدت نصف غلام ، فجاءت به القابلة وألقته على كرسيه بين يديه ، ولو قال : إن شاء الله لكان كما قال . فلا ابتلاء لأجل ترك الاستثناء .

الثاني : أن الله امتحنه برض شديد حتى أشرف على الموت ، فصار كالجلد على العظام وجسداً بلا حراك ، من شدة ما به من الضرب ، والتقدير وألقيناه على كرسيه جسداً ، أو ألقينا جسده على كرسيه . فحذف الاختصار .

الثالث : ولد لسليمان ولد ، فأحتالت الشياطين في قتله ، وقالوا : نخاف أن يعذبنا كما يعذبنا أبوه ، فأمر السحاب ثملته وأمر الريح فغذته ، خوفاً من الشياطين ، فمات الولد فألقى ميتاً على سريريه ، ابتلاء حين خاف الشياطين وركن إلى المخلوق .

أما ما يذكره القصاص من حديث الخاتم وآصف ، فتلك حكاية باطلة ، لا يدل على صحتها أي أثر ، فلا يجوز الالتفات إليها .

يونس عليه السلام :

وفيه قوله تعالى : (وإذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فتنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) .

والكلام في الآية من ثلاثة وجوه :

الوجه الأول : أنه ذهب مغاضباً ، وذلك عظور فإنه مأمور بالصبر في التبليغ ، كما قال تعالى : (واصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت)

الوجه الثاني : قوله : (فظن أن لن نقدر عليه) يقتضى كونه ظاناً فى قدرة الله تعالى :

الوجه الثالث : قوله : (إني كنت من الظالمين) .

والجواب : أن قصة يونس عليه السلام كأوردت فى سورة الصافات : (وإن يونس لمن المرسلين • إذ أبق إلى الفلك المشحون • فساهم فكان من المدحضين • فالتقمه الحوت وهو مليم • فلولا أنه كان من المسبحين • للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون • فنبذناه بالعراء وهو سقيم • وأنبتنا عليه شجرة من يقطين • وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون • فآمنوا فنعناهم إلى حِين) .

وخلاصتها : أن الله أرسل يونس عليه السلام إلى أهل نينوى ، وأمر أن يقبلوا دعوته ويدعوا الرسلاته ، ولما يئس منهم أنذرهم بعذاب الله ، وبين لهم العلامة على قدوم العذاب ، وهى أنهم قبل نزول العذاب بهم بثلاثة أيام تصفر وجوههم ثم تحمر ثم تسود ، ولما لم يلق منهم آذانا صاغية بعد هذا التحذير ضاق صدره وخرج متوجهاً إلى البحر وركب سفينة توصله إلى مكان آخر بعيداً عن مكان الكفار ، وكادت السفينة تفرق ، وكان من معيهم فى مثل هذه الأحوال أن يسلموا على أنفسهم وأيهم خرج سهمه ألقوه فى اليم ، وفعلوا وخرج سهم يونس ثلاث مرات ، فقالوا هذا هو العبد الأبق ، فألقوه فى البحر ، فالتقمه الحوت ، فأدرك يونس فعله وأنه خرج بدون إذن من الله تعالى ، فنادى فى الظلمات ولجأ إلى الله تعالى ، فاستجاب الله له ونجاه من كربته ، بفضل هذا الدعاء العظيم : (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) .

وأندب الله عليه شجرة من يقطين تقيه حر الشمس وبرد الليل ولدغ الحشرات
ثم أرسله الله ثانية إلى أكثر من مائة ألف في نفس البلد التي هاجر منها ،
فوجدهم قد آمنوا لما رأوا علامات العذاب ، ونابوا عما هم عليه ، ورجعوا إلى
الله ، بعد أن يئسوا من العثور على يونس ، فأخذوا في الدعاء والاستغفار من
ذنوبهم ، فلما علم الله صدقهم رفع عنهم العذاب .

أما الجواب عن الوجه الأول : فإن الآية لم تتحدث على أنه كان مغاضباً
ربه ، وكيف يصح هذا ومغاضبة ربنا لا تجوز على أحد من آحاد المسلمين ؟
فضلاً عن نبي مرسل ، إذن فهو خرج مغاضباً قومه .

أما قوله : (ولا تسكن كصاحب الحوت) فليس لأنه ثقلت عليه أعباء
النبوّة لضيق صدره ، بل المراد أنه لم يصبر على تلك المحنة التي اختبره الله بها
ولم يقو على تحملها ، ولو صبر لكان أفضل ، فأراد الله سبحانه بسيدنا محمد عليه السلام
أعلى المنازل .

وأما عن الوجه الثاني : فإنه لا نزاع أنه لا يجوز اتصاف الأنبياء بالشك
في قدرة الله تعالى ، إذ هو كفر والعياذ بالله ، بل المراد أن لن تضيق عليه
بقوم لا يؤمنون ، وكان الأفضل أن يصبر على أذاهم وينتظر قضاء الله فيهم
حتى يحكم الله بينه وبينهم . واستعمال (نقدر) بمعنى تضيق جاء في القرآن ،
وهو قوله تعالى : (الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر) أي يوسع ويضيق ،
ونحوها من الآيات .

وأما عن الوجه الثالث : فقد مضى الكلام عليه في قصة آدم عليه السلام ،
في الشبهة الأولى ، الفقرة الثالثة . فارجع إليه هناك .

لوط عليه السلام :

وفيه قول الله تعالى على لسانه : (هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين) فقد عرضن بالفاحشة مع بناته ، وتلك كبيرة .

والجواب : ما قاله الإمام الشافعي رحمه الله (الكلام يحمل في غير مقصوده . ويفصل في مقصوده ، ولما كان غرضه ترجيح النساء على الغلمان لا جرم لم يتعرض لذكر النكاح ، وإن كان ذلك معتبراً في نفس الأمر . والدليل على أن هذا الشرط كان معتبراً وجهان :

الأول : قال : (هن أظهر لكم) ولا طهارة في الزنى .

الثاني : أنه لو دعا إلى الزنى لكان لهم أن يقولوا : الزنا واللواط حرامان على مذهبك ، فأى فائدة في الدعوى من أحدهما إلى الآخر ؟ اه الرازي .

سؤال : هب أن لوطاً دعاهم إلى الزواج من بناته ، فهل يجوز للكافر أن يتزوج من مسلمة ؟

والجواب :

١ - إن ذلك كان جائزاً عندهم ، وقد زوج النبي ﷺ ابنته السيدة زينب رضي الله عنها من أبي العاص بن الربيع وهو كافر ، وذلك قبل أن تنزل آية التحريم المذكورة في سورة الممتحنة .

٢ - أو أنه يكفي في الإضافة أدنى سبب ، والمراد من البنات بنات الأمة وأضافن إلى نفسه لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام كالآباء لأمتهم .

٣ - أو أنه عليه السلام أراد موافقتهم وتسويةهم ، لأنه عالم من

الملائكة أنهم سيمسكون عند الصبح ، وقد أخبر القرآن بذلك في قوله تعالى :
(وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) .

عيسى عليه السلام :

وجاء فيه قول الله تعالى : (وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت
للناس اتخذوني وأبي إلهين من دون الله ، قال سبحانك ، ما يكون لي أن أقول
ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في
نفسك) الآية .

وفيه : أن عيسى عليه السلام إن كان قال هذا الكلام فالإشكال قائم ، وإن
كان على جهة الاستفهام فهو عبث . ثم إن ظاهر الآية يوم التجسيم ، لأن
النفس جسم . والفظ (في) للظرفية ، وهي لا تأتي إلا في الأجسام .

والجواب : أنه عليه السلام ما قال ذلك ، ويحمل الاستفهام على أنه تقرير
من ادعى ذلك من النصارى ، والنفس معناها الذات في اللغة ، تقول : نفس
الشيء وذاته . والظرفية هنا معناها قيام الصفة بالوصف .

سيدنا محمد ﷺ :

الشبهة الأولى :

قال الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى
الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته) .

فظاهر الآية الكريمة يدل على أن الشيطان أدخل في القرآن ما ليس منه .

وبذلك يرتفع الوثوق به ، وقد روى أن النبي ﷺ قرأ على الملا من قریش
« والنجم إذا هوى » حتى بلغ « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى »
فألقى الشيطان على لسانه ذلك الفرائق العلاء وإن شفاعتهن لترجى ، ففرحت
بذلك قریش ، ثم مضى ﷺ في قراءته حتى أتم السورة ، فسجد صلوات الله وسلامه
وسجد معه المسلمون والمشركون جميعاً ، إلا الوليد بن المغيرة وأبا أحيدة سعيد
ابن العاص ، حيث أخذوا حفنة من التراب وسجدوا على راحتهما . فلما أمسى
رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وقال : ماذا صنعت ؟ تلوت على
الناس ما لم آتاك به عن الله ، فحزن صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً ، وأنزل
الله الآية .

والجواب :

١ - أن هذه القصة مرسلة في كل طرفها ولم تأت من وجه صحيح - كما قال
ابن كثير - وقد طعن الأئمة فيها وفي سندها :

قال ابن إسحاق : هي من وضع الزنادقة . وقال القاضي عياض : هذا
الحديث لم يخرج له أحد من أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل ، وإنما
أولع به المفسرون والمؤرخون ، ممن يجري منهم وراء كل غريب ويتلقف عن
المصنف كل صحيح وسقيم .

ونقل عن ابن العربي : أن جميع ما ورد في هذه القصة لا أصل له ، قال
القاضي : والذي ورد في الصحيح : أن النبي ﷺ قرأ « والنجم » وهو بكه
فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس .

وقد تارت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ونزاهته عن هذه الرذيلة ،
وهو مدحه آلهة غير الله لأنه كافر ، وعن تسلط الشيطان عليه حتى يجعل

في القرآن ما ليس منه حتى ينهه جبريل إلى ذلك ، وعن أن يقول صلى الله عليه وسلم ذلك من قبل نفسه عهداً أو سهواً ، وذلك كله معصوم منه النبي عليه الصلاة والسلام وقد جاءت بذلك الأدلة والبراهين ، وقام عليه الإجماع .

قال الله تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل • لأخذنا منه باليمين • ثم لقطعنا منه الوتين) وقال : (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي) وقال : (كذلك لنثبت به فؤادك) .
٢ - جاء التمني في اللغة بمعنيين : تمنى القاب والتلاوة .

وبما يستدل به على المعنى الثاني قول الله تعالى (ومنهم أमीون لا يعملون الكتاب إلا أمانى) أى لإقراءة - ومنه قول حسان في رثاء عثمان بن عفان رضى الله عنهما وعن الصحابة أجمعين :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

والمراد من التمني في الآية القراءة ، ولا يمكن أن يكون المراد أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا تمنى بقلبه بعض الأمور ووسوس له الشيطان بالباطل ، ثم يفسخه الله ويأفقه إلى الحق .

وإذا قلنا : إن التمني معناه القراءة والتلاوة ، يكون معنى الآية السكينة ، أن الشيطان تكلم بكلام من تلقاء نفسه في درج قراءة الرسول عليه الصلاة والسلام : ليظن أنه من جنس الكلام المسموع منه صلى الله عليه وسلم ، وهو غير متمتع ، لأنه لا خلاف أن الجن والشیاطين متكلمون ، فلا يمتنع أن يسمع كلام الشيطان ، من غير رؤية صورته ، وحينئذ فلا يبعد أن يظن السامعون أن الكلام المسموع من الشخص المرنى أمامهم ، وهذا لا يقدح في النبوة لأنه ليس من فعل النبي .

وإذا قيل : إن هذا يرفع الثقة عن شرع الله ، وعن نص كلامه .
فلنا إنه لو وقع لوجب في الحكمة الإلهية أن يشرح لرسول الله الأمر ،
كما في هذه الواقعة حيث أزال اليبس .

٣ - جواب آخر : إن المتكلم بذلك بعض الكفار ، فقد عمد بعضهم إلى
إلقاء تلك الكلمات في أثناء قراءة الرسول ﷺ ، فقد كان من عاداتهم أنهم
يلغظون عند قراءة القرآن ويوصي بعضهم البعض : لا تسمعوا لهذا القرآن
والغوا فيه ، طلباً لتخليطه وإخفاء قرآنه .

وقيل : إنه كان إذا تلا القرآن على قريش أو كان في صلاة ، توقف في
فواصل الآيات ، فيلقى بعضهم بالكلام واللفظ ، قصد التشويش على الرسول ،
فلما انتهى رسول الله ﷺ من قراءته إلى هذا المكان ، ومناة الثالثة الأخرى ،
فذكر آلهتهم وقد علموا أن من عاداته أنه يعيها ، قال بعض الكفار
: تلك الفرائيق العسلا . . فاشتبه على القوم أنه من قراءته عليه
الصلاة والسلام .

وقد أضاف الله ذلك إلى الشيطان لأنه حصل بوسوسته ، أو لأنه جعل
المتكلم شيطاناً (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى
بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) .

٤ - وبما يدل على بطلان هذه القصة أن سياق الكلام لا يتفق مع مدلوله
الكلمات الدخيلة ، إذ كيف مدحها بكونها في العلم وأن شفاعتها ترتجي ، ويقول
عنها : إن هي إلا أسماء سميت بها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان الآية
إن هذا يقتضي الجمع بين المتناقضين ، وحاشا أن يكون القرآن كذلك (ولو كان
من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

٥ - ثم إن كلمة الغرائيق ، لم ترد في العربية ، ولم ينقل عن أحد أن تلك اللفظة جرت على لسان أهل اللغة ، وإنما ورد الغرنوق والغريق - وهو اسم طائر أسود أو أبيض ، أو اسم للشباب الأبيض الجميل ، وليس شيئاً من ذلك يلائم وصف الآلهة .

٦ - إن هذه القصة سرودة سندا ومتناً - كما علمنا من هذا العرض - يزيد أن الذي أدخلها على الإسلام - يهودي ، ورواها عنه ابن سعد في الطبقات والطبري برويها عن محمد بن كعب القرظي ، وقد ولد بعد وفاة النبي ﷺ ، ولم يجرؤ أحد أن يسندها لأحد من الصحابة البررة الكرام رضي الله عنهم .

الشبهة الثانية :

قال الله تعالى : (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) . الآية .

قالوا إن رسول الله ﷺ رأى زينب بنت جحش بعد ما تزوجها زيد ابن حارثة فأحبها ومال قلبه إليها ، فلما حضر زيد لطلاقها أخفى في نفسه عزمه على الزواج منها بعد طلاقها ، فعاقبه الله على ذلك .

والجواب :

١ - أن زيد بن حارثة كان إبناً للرسول ﷺ بالتبني ، وحرم الله التبني كما كانت تعتقده الجاهلية من أن الإبن المتبني كالإبن الصلب ، وكان ذلك في سورة الأحزاب (ادعهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم) فكان يدعى زيد بن حارثة بدل زيد بن محمد ، وقد نزلت هذه السورة في السنة الرابعة بعد الهجرة .

وقد مكثت زينب عند زيد ما يقرب من سنة ، ولما أراد الله لهذا الزواج أن

بنفسهم ، أسوة العشرة بين الزوجين ولتعالى السببة زينب على زيد بالحبس والنسب ، طلقها ثم تزوجها رسول الله ﷺ بعد ذلك ، وقد كان ذلك في السنة الخامسة على ما رجحه ابن كثير .

وكان هذا الزواج تشريعاً محكماً أنزله الله في كتابه ، ولم يكن وليد شهوة كما يدعى أعداء الإسلام ، قال تعالى : (لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً) .

ولحكمة جليلة أراد الله تعالى أن يكون هذا التشريع على يد رسول الله ﷺ فهو القدوة المثلى للمسلمين ، وظاهرة مثل هذه قد تغفلت بغيرها في النفوس لا تهدم أصولها إلا من معول قوى شديد . وليس يقوى على هذا سوى المعلم الأعظم والمشرع الأول إمام المسلمين ، فهذا أدعى لقبولهم وأطوع لهم على ترك الزواج من مطلقة الابن المتبنى ، وعدم إعطائه من الحقوق ما هو ثابت للإبن من الصلب .

٢ - أن الله تعالى ذكر في القصص (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) وهذا تصريح بأنه لم يصدر عنه ذنب ألبتة ، بل كان لا بد من تنفيذ أمر الله وإمضائه ، (وكان أمر الله مفعولاً) - ولو استعرضت مقالة القرآن في هذا الأمر ، فلن تجد ذنباً صدر عن الرسول ﷺ في هذه الواقعة ، ولا ذمه ولا عاتبه ، وما ذكر أنه عصي أو أخطأ ، أو استغفر من ذنب صدر عنه ، ولو كان شيء من هذا لذكره الله في كتابه ، ولما لم يكن شيء من ذلك ، دل على أن رسول الله ﷺ لم يخطئ ولم يقع منه ما يعاتب عليه ، بل كان منفذاً لأمر الله جل شأنه .

٣ - قول الله تعالى (وتخفى في نفسك ما الله مبديه) وهو زواجه عليه الصلاة والسلام من زينب بعد طلاقها من زيد ، وذلك بسبب حياته الشديدة

من زيد ومحبه له حيث كانت في عصمته ، وقد أوحى الله إليه أنه سيطلقها
وتصير زوجة له ، وبسبب تخرجه من مقالة الناس فيه ، واسكنه يعلم في قراره
نفسه أنه قضاء الله ولا بد من نفاذه .

ويقول ابن العربي : « فإن قيل كيف يأمره بالتسك بها وقد علم أن الفراق
لا بد منه ، وهذا تناقض ؟ قلنا : بل هو صحيح المقاصد الصحيحة لإقامة الحججة
ومعرفة العاقبة . ألا ترى أن الله يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن ؟ !
فليس في مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به عقلاً وحكماً ، أهـ .
أحكام القرآن .

٤ - كان صلى الله عليه وسلم يأمر زيداً بإمساك زينب ، ولما حضر طالبا من الرسول
طلاقها أشفق من أنه لو طلقها للزمه الزواج منها ، فيصير بذلك سبباً لسوء
قالة المنافقين واليهود ، فأخفى في نفسه عزمه على نكاحها بعد طلاقه إياها .
فالحشية معناها الاستحياء وتعريض نفسه لسوء الكلام ، وقولهم تزوج من
امرأة ابنه ، وهو ينهى عن تزوج حلائل الأبناء ، ومن هنا أمره الله ألا يلتفت
إلى أحد من الناس ، مادام الشرع في إصلاح المجتمع ، وإقامة علاقات أمرية
صحيحة ، وهدم تقاليد جاهلية تضر بكيان المجتمع الإسلامي .

٥ - ثم إن الله تعالى هو الذي زوجه إياها . لقوله : (زوجناكمها) .
ولو حصل في ذلك سوء لكان قدحاً في الله تعالى ، فثبت أن الأمر ليس
لِلرَّسُولِ فيه اختيار .

٦ - لقد كانت السيدة زينب بذت عمة الرسول عليه الصلاة والسلام ،
شماها بمنائته قبل زواجها من زيد وكانت تقع تحت سمعه وبصره ، وهو الذي
خطبها وزوجها لزيد ، مع امتناعها وامتناع أخيها وعصينهما ، حتى نزل

القرآن فأطاعا مرغمين : (وما كان لأومن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً) ، ولو كان للشهوة أثر على قلبه الشريف ﷺ ، لكان أشد الأثر حينما كانت بكرأ ذات بهاء ونضرة ، فكيف يعقل أن يمتد قلبه وبصره إليها بعد ما صادت زوجة لعبد أنعم عليه هو بالعتق وأنعم الله عليه بالإيمان ؟ وأن هذا من الخلق الرفيع لو نظر إلى امرأة رجل آخر نظرة شهوانية ذات عاطفة متحرفة عن الأخلاق التي جاء يدعو إليها عليه الصلاة والسلام ، أنظن أن الله يرفع قدره ويعلّي شأنه ويجعله في درجة سيد الأنبياء لو أنه فعل هذا ؟ (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) . (وإنك لعلى خلق عظيم) . . . (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) حاشاه ﷺ أن تكون أخلاقه منافية لكريم الصفات التي دعا إليها ، وجاء بها القرآن والسنة .

٧ - سؤال : قول الله تعالى : (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) يدل على أن الإخفاء ما كان جائزاً له .

والجواب : (أنه ﷺ أخفى ذلك اتقاء لسوء كلام المنافقين وغيرهم . على ما علمنا - ومع ذلك فلو أنه تحمل سوء مقالهم وأظهر الأمر ، لكان أكثر ثواباً فيه ، فيرجع حاصله إلى ترك الأولى والأفضل ، وليس ذلك من الذنب في شيء .

فأما الذين يذكرون أنه عشقها فهو من باب الآحاد والأولى تنزيه منصب الأنبياء عن مثله ، لا سيما والقرآن لا يدل عليه البتة) اه . عن الفخر الرازي .

الشبهة الثالثة :

قال الله تعالى : (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض يريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، فسكوا بما غنمتم حللاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم) .

ففي هذه الآيات : ما يقتضى أن يكون استبقاء الأسرى محرماً (ما كان لنبي أن يكون له أسرى) . وفيها أن الله ذمهم (يريدون عرض الدنيا) ، (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) .

والجواب :

١ - أن الله تعالى : إما أن يكون أوحى إليه بجواز الأسر أولاً ، فإن كان الأول فلا يجوز له ﷺ أن يستشير أصحابه . لأنه لا يجوز الاشتغال بالاستشارة مع قيام النص وظهور الوحي ، وإن لم يكن أوحى إليه بشيء لم يجوز أن يتوجه إليه ذنب مطلقاً .

٢ - ثم إن حكم الرسول عليه الصلاة والسلام لو كان خطأ ، لما أقره الله عليه ولأمره بنقضه ، بأن يقتل الأسرى ويرد ما أخذ من الفداء ، ولما لم يكن شيء من ذلك ، بل قال الله : (فسكوا بما غنمتم حللاً طيباً) فلمنا أنه لم يوجد خطأ في حكمه ﷺ .

٣ - إنه عليه الصلاة والسلام لم يشتغل بالاستغفار والتندم ، وذلك يدل على عدم الذنب مطلقاً .

٤ - إن العتاب كما يكون على ترك الواجب ، يكون على ترك المندوب ،

وعلى ترك الأولى كذلك . وقد كان الأولى في ذلك الوقت القتل وترك الفداء قطعاً للأطماع وحسباً للأنزاع ، ولولا أن ذلك من باب ترك الأولى لما فوض النبي ﷺ لأصحابه ذلك .

٥ - وقوله تعالى : (تريدون عرض الدنيا) خطاب للجميع ، فيصرف إلى الأصحاب الذين رغبوا في المال ،

٦ - وقوله : (لولا كتمان من الله سبق) معناه : لولا ما سبق من تحليل الغنائم لعدبهم بسبب أخذهم الفداء . وهذا تقرير لهم حيث أخذوه بدون أمر من الله سبق ، فهو من سوء التدبير .

ولما قرعهم سبحانه مع كونه حلالاً لهم ، لأن ذلك في حال الحرب ، وما كان من هذا الباب فقد يقع الخطأ فيه من جهة التدبير ، ويقرع المخطئ وإن كان غير مذنب .

الشبهة الرابعة :

قال الله تعالى : (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) .

وذلك حينما استأذنه قوم في التخلف عن الخروج للجهاد فأذن لهم . فقال الله له ذلك - والعفو لا يكون إلا بعد صدور ذنب ، ثم إن العفو يقتضي ترك المؤاخظة . وقوله : (لم أذنت) مؤاخظة ، فالكلام متناقض في الظاهر .

والجواب : أن الله تعالى أراد التلطف في الخطاب مع حبيبه ﷺ ، وهذا كما لو قلت : أنت رحيم الله ، واسمع كلامي غفر الله لك ، وإن لم يكن هناك ذنب البتة .

وأيضا فهذا من باب التدبير في الحرب ، وقد علمنا أن تارك الأولى والأفضل يعاتب وينبه على هذا الترك .

الشبهة الخامسة :

قال تعالى : (ووضعتنا عنك وزرك . الذي أنقض ظهرك) وهي صريحة في ارتكاب الذنب .

والجواب : أن المراد ما كان من صغيرة أو من ترك الأولى .

ثم إن الوزر لغة : الثقل ، قال تعالى : (حتى تضع الحرب أوزارها) أي أثقالها . وسمى الذنب بالوزر لأنه يشغل على فاعله .

فعلى هذا فإن تسمية الذنب بالوزر مجاز آخر ، وهو أنه ^{كان} كان في غم وحزن شديد ، لإصرار قومه على الشرك . وقد كان هو وأصحابه مستضعفين ، فلما علت كلفة الله وعظم أمر الإسلام ، وارتفع شأن الرسول وصحابته ، فقد وضع الله عنه وزره ، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى في بقية السورة (ورفعتنا لك ذكرك . فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً) فإن العسر بالشدة والعسر بالهموم أشبه ، واليسر بإزالة هذه الشدائد والهموم أشبه .

وهذه السورة وإن كانت مكية ، إلا أن وهد الله حق ، وقد وعده سبحانه بذلك في مكة ، فقد قوى قلبه وزال كرب .

وقد قال سبحانه في سورة الروم وهي مكية (ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءهم بالبينات فاتقننا من الذين أجمعوا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) .

الشبهة السادسة :

قال تعالى : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما) وهذا تهريج بالمغفرة من الذنب .

والجواب :

١ - أنه محمول على الصفات .

٢ - أو من باب ترك الأولى فقد يسمى ذنبا ، كما يقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

٣ - أو أن الذنب مصدر وهو يجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول ، فكأن المراد : ليغفر لأجلك وبركتك ما تقدم من ذنبهم في حقتك وما تأخر والمغفرة على هذا هي الإزالة والنسخ لأحكام أعدائه المشركين ، في منعهم إياه من مكة وصددهم له عن المسجد الحرام - وهذا التأويل يوافق ظاهر الكلام حتى تكون المغفرة غرضا في الفتح ووجها له ، وإلا فلو كانت المغفرة موجهة إليه صلى الله عليه وسلم ، لم يكن لقوله (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) ليغفر لك (الله) لم يكن لها معنى معقول ، لأن مغفرة الذنوب لا تتعلق لها بالفتح وليست غرضا فيه .

٤ - أو أن الكلام محمول على الشرط ، أي لو كان لك ذنب لغفرتك ، لك ، وإخراج القضية الجازمة إلى الشرطية جائز إذا دل عليه سياق الكلام ، وبذلك يكون الغرض من الآية علو درجة الرسول عليه الصلاة والسلام .

الشبهة السابعة :

قال تعالى (عبس وتولى) أن جاءه الأعشى . وما يدريك لعله يزكى .

أو يذكر فتنة الذكرى • أما من استغنى • فأنف له تصدى • وما عليك
الآيزكى) الآيات . وفيها عتاب من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم لإعراضه عن
ابن أم مكتوم .

والجواب :

١ - لا نسلم أن الخطاب متوجه إلى رسول الله ﷺ ، فإن قول المخضرمين
في هذا مستنده رواية آحاد ، فلا تقبل .

٢ - ثم إن هذا التفسير يعارضه أنه ليس من صفات الرسول العيوس ،
ولم ينقل في خبر صحيح ذلك ، فما ثبت أنه عيسى مع الأعداء فضلاً عن المؤمنين
وكذلك وصفه بالتصدي الأغنياء والنامي عن الفقراء ، ولا يليق أن يقال له :
(وما عليك ألا يزكى) فإن الرسول كان حريصاً على إيمان قومه ، ولقد قال
الله له (فلعلك باخع نفسك على آثامهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا)
وقال (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) . وأيضاً فكيف يزجر الله
حبيبه بهذا اللفظ (كلا) .

٣ - سلمنا أن الخطاب متوجه إلى الرسول ﷺ ، لكنه ليس ذنباً ،
فقد وصف الله نبيه بحسن الخلق ، فقال (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا
من حولك) . (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . (وإنك لعلی خلق عظيم)
فلو ظهر منه في القليل النادر خلاف ذلك ، عاتبه ربه عليه ، فيكون ذلك من
باب ترك الأولى .

٤ - ثم إن السبب في ذلك كما جاء في الخبر : أن الرسول كان يتحدث مع
أشراف قريش ويستميلهم إلى الإسلام . وجاء أن يعز بهم الإسلام ، فغضبه
ابن أم مكتوم ، وهو أهمى لا يعرف كيفية الحال ، فسأل عن مسألة في خلال

مكاملة النبي عليه الصلاة والسلام هؤلاء القوم ، فاشتد ذلك عليه ، لأنه كان قطعاً
للكلام وإفساداً لمحاولته إسلام بعض القوم ، فأعرض عنه ، فهما الله عن ذلك
وأمره بالإقبال عليه وعلى أمثاله ، وألا يفاضل بين غنى وفقير وشريف ووضيع ،
وألا يخص بدعوته أحداً دون أحد ، فوظيفته البلاغ إلى الكل ، ولا يؤاخذ
بامتناع من امتنع عن قبول دعوته .

الشبهة الثامنة :

قال الله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى) إلا ما شاء الله .

فإن الاستثناء يدل على جواز النسيان في وحي الله تعالى .

والجواب : أن النسيان يأتي بمعنى الترك ، قال تعالى :

(قاليوم نفسام كانوا لقاء يومهم هذا) والمعنى على هذا : سنقرئك
فلا تترك منها شيئاً ، إلا ما شاء الله ، وهو المندوب أو المنسوخ - اهـ عن
الفخر الرازي .

قال مجاهد والكلبي : « كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي ، لم يفرغ
من جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها ، مخافة أن ينساها ،
فقلت (سنقرئك فلا تنسى) .

ويقول الشوكاني في الاستثناء : أي لا تنسى مما تقرأه من الأشياء إلا
ما شاء الله أن تنساه .

قال الفراء : وهو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد صلوات الله وسلامه عليه
شيئاً ، كقوله (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك)
وقيل : إلا ما شاء الله أن تنسى ثم تذكر بعد ذلك ، فإذا قد نسي ولكنه

يتفكر ، ولا ينسى شيئاً نسياناً كلياً . وقيل : بمعنى النسخ ، أى إلا ما شاء الله أن يفسخه مما نسخ تلاوته .

وقيل : فلا تنسى : فلا تترك العمل إلا ما شاء الله أن تتركه لنفسه ورفع حكمه) .. إلخ ما ذكره .

الشبهة التاسعة :

قال تعالى : (واستغفر لذنبك) وجاء في الحديث : إنى لاستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة .

وهذا صريح فى صدور الذنب عنه .

والجواب : أن هذا محمول على الصغيرة . أو ترك الأولى . أو قواصماً منه عليه السلام . أو على التقدير ، بمعنى إذا أذنبت فاستغفر الله - وهو كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) فهو يحثهم على التوبة جميعاً إذا حصل منهم ذنب .

الشبهة العاشرة :

قال تعالى : (ووجدك ضالاً فهدى) .

وهى صريحة فى إثبات الضلال له عليه السلام .

والجواب : أن الضلال هو الذهاب والانصراف فى اللغة ، والمنصرف عنه غير مذكور فى الآية ، فمن الخير أن يفسر بما يوافق الدلائل الذى يدل على عصمة النبي عليه السلام . وهو أحد أمور أربعة :

١ - ووجدك ضالاً عن النبوة فهذاك إليها ، وهذا ما يؤيده قول الله

تعالى (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) فالضلال بمعنى التحير ، لأن الضال متحير .

٢ - وجدك ضالا عن المعيشة وطريق السكسب ، فهذاك إليه .

٣ - وجدك ضالا . في زمن الهبي في بعض المفاوز ، فردك لجدك .

٤ - وجدك ضالا - أى مضلولا عنك - في قوم لا يعرفون حقائقهم ، فهذام الله إلى معرفتك - كما تقول : فلان ضالة قومه ، ووجدت ضالتي - أى المضلول عنه . والمضلول عنه .

والعل أولى هذه التفاسير الأول ، وهو ما تؤيده الآية الأخرى ، وقريب من هذا القول : أن الرسول كان ضالا عن تفصيل الدين الحق ، وعن معالم الإيمان والشرعة ، فهذا الله إلى الفرائض والأحكام وتفصيلات الشرعة السمحة .

وقد جاء في كتب التفسير : أنه ﷺ كان يتعبد على دين إبراهيم الخليل عليه السلام ، قبل أن يأتيه الوحي وينبأ ، وقيل : على شرع من قبله ، أى على دين عيسى عليه السلام .

والذى نعتقد أنه كان مؤمناً بالله ولم يسجد لهم ولا زنى ولا شرب الخمر ولا شهد بحاسنهم ، ولا غير ذلك مما لا يقره عقل سليم . اهـ عن القرطبي في سورة الشورى ، سورة والضحي يتصرف .

كلمة الختام

هذه هي الموضوعات التي قصدنا إلى بيانها وتوضيحها ، بقدر الإمكان ، وقد حاولنا فيها أن نبين الوزن الحقيقي لهذا التفسير ، والقيمة العلمية التي يهدف إليها الدارس ، الذي يريد أن يتخوض محيط القرآن الكريم ، حتى يبرز للناس هدايته في أسس أسلوب وأوضاع عبادة ، ويقرب كتاب الله إلى قلوب المؤمنين المسترشدين بأقصر سبيل وأوضح طريق .

ولا شك أننا نعيش في عصر كثرت فيه الثقافات المختلفة ، وأكثرها منقول عن علماء الغرب ، أو عن بعض علماء الشرق الذين درسوا علوم الغرب وشربوا من مشابيحهم ، هؤلاء الذين يحاولون إلقاء الشبه والآباطيل في أفهام العامة من المسلمين ليحجبوا عنهم نور هذا القرآن الكريم ، وهم كما قال الله عز وجل : (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

أسأل الله أن يوجه علماءنا إلى العناية بهذا النوع من التفسير ليعلم الناس في مشارق الأرض ومغاربها مصداق قوله تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) .

والله أسأل أن يهدينا سبيل السداد والرشاد ، وأن يلهمنا الفهم لمعان كتابه الكريم وسنة نبيه المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وأفد

يوفقنا لقيام بخدمتهما والعمل بما فيهما وأن يجعلنا ممن يكون كتابهم شفيعا لهم
وأن يتفضل علينا بنعمة الرضا وشرف القبول .

لأنه تعالى أكرم مسئول وخير مأمول ، وإله الحمد في الأولى والآخرة
وهو السميع البصير وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وصلى الله على سيدنا محمد خير الأنام وخاتم الرسل السكرام عليهم
الصلاة والسلام .

المراجع

- ١ - تفسير الطبري بتحقيق الشيخ شاكر .
 - ٢ - تفسير ابن كثير .
 - ٣ - الكشاف للزمخشري .
 - ٤ - تفسير الفخر الرازي .
 - ٥ - تفسير القرطبي .
 - ٦ - تفسير أبي السعود الهادي .
 - ٧ - تفسير النيسابوري .
 - ٨ - تفسير الألوسي .
 - ٩ - تفسير المنار .
 - ١٠ - فتح القدير للشوكاني .
 - ١١ - أحكام القرآن لابن العربي .
 - ١٢ - عصمة الأنبياء للفخر الرازي .
 - ١٣ - نيل الأوطار للشوكاني .
 - ١٤ - الإتيقان للسيوطي .
 - ١٥ - البرهان للزركشي .
 - ١٦ - لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي .
 - ١٧ - الفصل في المال والأهراء والنحل لابن حزم .
 - ١٨ - الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره
- لمحمد القاسم

ملاحظة:

١ - كتب فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد السيد الكوي :

من ص ٢ إلى ص ٤٤

ومن ص ٦٥ إلى ص ٧٩

٢ - وكتب الدكتور محمد أحمد يوسف القاسم :

من ص ٤٥ إلى ص ٦٤

ومن ص ٨٠ إلى آخر الكتاب

الفهرس

٣	الفاتحة
٥	المقدمة
٩	أنواع التفسير
١٧	الحاجة إلى التفسير الموضوعي
٢٠	متى نشأ التفسير الموضوعي ؟
٢٢	طريقة البحث في التفسير الموضوعي
٢٥	إجمال لما عرض إليه القرآن من موضوعات
٣٤	منهج القرآن الكريم في عرض موضوعاته
٣٦	عرضه لتشريع الأحكام وبيان الحلال والحرام
٣٦	أولاً : أسلوبه السهل
٣٧	ثانياً : عناية المكي بالعقيدة والمبادئ العامة
٣٩	ثالثاً : الإجمال ثم التفصيل
٤١	رابعاً : تشريعات تقرر مبادئ كاملة
٤٥	خامساً : تفسير آيات الخمر في القرآن
٦٥	سادساً : القرآن والأسرة
٦٦	١ - تكوين الأسرة
٦٨	٢ - حقوق كل من الزوجين على الآخر
٧٠	٣ - حكم تعدد الزوجات
٧٣	٤ - حقوق الآباء على الأبناء وحقوق الأبناء على الآباء
٧٥	٥ - علاج القرآن لمشاكل الأسرة
٧٧	٦ - الطلاق في القرآن

الصفحة	الموضوع
٨٠	سابعا : حروف المعجم التي افتتح بها بعض السور
٨٢	المراد من هذه الحروف
٩١	حكمها في الوقف
٩١	علمها من الإعراب
٩٣	ثامنا : استخلاف آدم عليه السلام
٩٣	١ - ورود القصة في القرآن
٩٤	٢ - قصة الاستخلاف
١٠٢	الهدف والمعنى من الاستخلاف
١٠٤	ثامسا : تفسير الآيات المتعلقة بالبعث
١٠٤	١ - عقيدة البعث
١٠٧	٢ - منكر و البعث والرد عليهم
١٠٩	٣ - الأدلة على إمكانه ووقوعه
١١٤	٤ - وقوعه في الدنيا يشبه وقوعه في الآخرة
١٢٢	عاشرا : عصمة الأنبياء عليهم السلام
١٢٢	تعريف العصمة . والمقصود منه :
١٢٢	١ - العصمة من الكفر والشرك
١٢٣	٢ - العصمة من الكذب في دعوهم
١٢٤	٣ - العصمة من الكبائر
١٢٧	٤ - العصمة من الصغائر
١٢٧	الأدلة على عصمتهم
	بعض شبهات ورددها
١٣٠	آدم عليه السلام
١٣٣	نوح عليه السلام
١٣٤	إبراهيم عليه السلام

الصفحة	الموضوع
١٣٨	يوسف عليه السلام
١٤١	موسى عليه السلام
١٤٣	داود عليه السلام
١٤٥	سليمان عليه السلام
١٤٧	يونس عليه السلام
١٥٠	لوط عليه السلام
١٥١	عيسى عليه السلام
١٥١	سيدنا محمد ﷺ
١٦٧	كلمة الختام
١٦٩	المراجع

والحمد لله رب العالمين